

(٤)

حرية
الرأي



oboiikan.com

مقدمة

سؤال الإنسانية الدائم : ما هو النظام الذي يصلح للإنسانية وتسعد به، ويحقق لها حياة مستقرة هائلة؟ ... وبديهي أن إجابة السؤال بالنسبة للمؤمنين بالله ... هو أن الله هو الذي خلق الإنسان، ويعلم ما يصلحه وما يفسده، ومن ثم فإن القواعد التي وضحها الله تعالى وأرشد بها الإنسان، هي التي تحقق ذلك الهدف. وبما أن الإسلام هو دين الله الحق، وبما أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو النبي الخاتم، فإن النظام الإسلامي وحده هو الذي يحقق ذلك، ولكن هذا في حد ذاته ليس حلاً نهائياً، فالنظام الإسلامي يطبقه بشر، ومن ثم فإنه مستوي ارتفاع هذا البشر إلى مستوي النظرية هو شرط تحقيق ذلك، وهذا الشرط بدوره موجود في كل النظم، فالنظم كلها يطبقها بشر، ومن ثم فإن من الممكن أن يحسنوا التطبيق أو لا يحسنونه، سواء كان النظام المطبق ربانياً أو وضعياً ونخلص من هذا أن النظام الوضعي والنظام الرباني يتساويان في شرط التطبيق، ولكن للنظام الرباني فضل لا شك فيه بالنسبة للنظرية .

من زاوية أخرى فإن الخبرات البشرية ذاتها ومن خلال تجارب وقعت في التاريخ القديم والحديث والمعاصر تقول أن النظم الوضعية فشلت في الأمرين معاً، في النظرية والتطبيق على حد سواء، بل لقد عانت البشرية معاناة هائلة بسبب تطبيق النظم الكسروية والهرقلية، بل والديمقراطية والاشتراكية والفاشية والنازية والشيوعية، بل إن مستوي المعاناة كان بشعاً، ففي ظل تلك الأنظمة وبالذات الديمقراطية منها حدثت إبادة لشعوب الأمريكتين وأستراليا وحدثت مذابح في معظم أرجاء العالم نفذها الرجل الأبيض، ونشأت الصهيونية ثم دوله إسرائيل،

وهي حالة تجسيم للظلم على مستوى اغتصاب حقوق شعب وأرض وعلى مستوى انتهاك حقوق الإنسان بصورة يومية وعلى مدار الساعة لعشرات السنين تحت سمع العالم وبصره، والديمقراطية هي التي استخدمت القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية وهي التي مارست نهب العالم، ولا تزال قوات الدول الديمقراطية تنتهك سيادة الشعوب في العراق وأفغانستان وفلسطين.... الخ أضف إلى ذلك إفساد البيئة واستنزاف ثروات الأرض.... الخ

والمحصلة أن هناك شقاء لا شك فيه ترتب على تطبيق تلك النظم، شقاء جماعي... أما في التطبيق الإسلامي فإن المسألة مختلفة، صحيح أنه هناك تجاوزات، ولكنها تجاوزات فردية لا ترقى إلى تشكيل ظاهرة، وهي مرفوضة طبعاً، أي أننا لو قارنا بين مستوى السعادة في ظل الحضارة الإسلامية ومستواها في الحضارات الأخرى وخاصة الغربية نجد أنه لصالح الحضارة الإسلامية بامتياز، ونحن هنا نتكلم عن الظاهرة في مجراها الرئيسي، أو في المحصلة النهائية، ونكرر أن هناك استثناءات ولكنها لا تحرق القاعدة، هناك استثناءات إيجابية في الحضارات الأخرى، وهناك استثناءات سلبية في التطبيق الحضاري الإسلامي ولكن تظل القاعدة هي نفسها وبديهي أن النظام الإسلامي به من الاتساع والمرونة ما يسمح بالاستفادة أيضاً من الخبرات الإيجابية للتجارب الأخرى، وهذا لا يخالف الشرع الحنيف، بل هو فريضة أوجبها الشريعة الإسلامية ذاتها، فالحكمة ضالة المؤمن أي وجدها فهو أحق بها.

الحديث عن الحرية في الإسلام، وحرية التعبير، ليس حديثاً عن النظام السياسي الإسلامي فقط، بل هو حديث يتصل بمنهج الإسلام ذاته؛ لأن الحرية في المنهج الإسلامي غاية ووسيلة في نفس الوقت، فلا إيمان بدون حرية، ولا إكراه على الإيمان ولا إكراه أيضاً على الكفر، وبالنسبة لنا نحن المسلمين، فإننا نؤمن أن

الإسلام في فطرة الناس، إذن لو تنافس الناس بحرية، لو لم يكن هناك قهر ولا عسف، لو لم يكن هناك تعصب مسبق لأي شيء لأصبح الإيمان سهل جدا، ولعل هذا واجب أمة الإسلام واجبها القضاء على الاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي والتعصب، وإعطاء الناس حرية الاختيار، وفي تلك الحالة فإن الناس تختار الإسلام لأنه دين الفطرة، وحتى لو لم يختاروه فهم أحرار إذ لا إكراه في الدين، المهم أن أحد مهام الأمة الإسلامية هو تحقيق حرية الاختيار وإزالة كل العوائق التي تحول دون ذلك، ومن نافلة القول أن الجهاد في الإسلام في أحد أهدافه هو إزالة الأنظمة الاستبدادية التي تقهر الناس على الكفر، وتحقيق حرية الدعوة، فإذا تحققت حرية الدعوة بدون عقبات فلا داعي أصلاً للقتال.

وهكذا فالحرية هي في صميم المنهج الإسلامي من ناحية إقامة الحجة على الناس بتحقيق حرية الاختيار حتى يختار الناس الإسلام أو الكفر بحرية وحتى يتناقشوا ويتحاوروا بدون ضغوط.

الحرية أيضا ومن ثم حرية التعبير والتفكير تظهر في تصور الإسلام للإنسان، استخلافه في الأرض، ودوره فيها، حمله للأمانة ثم وجود نوازع للخير وللشر في نفسه، وهكذا فإن ذلك لا يتسق مع بعضه البعض بدون أن يكون ذلك الإنسان حرا. فلا معنى لأن يكون الإنسان خليفة مسئولاً بدون هذه الحرية بكل أنواعها على أن من المهم هنا أن نحدد أن الإنسان يتكون من كيان مادي وروح وعقل، والروح خارج إطار فهمنا، والكيان المادي خاضع لقوانين وسنن المادة التي جعلها الله عليها، ويبقى أن الحرية منوطة بالعقل الذي يتميز به الإنسان على سائر المخلوقات، فالإنسان مسير فيما يخص الجزء المادي من تكوينه ولكنه مخير فيما هو متاح له من خير أو شر «ضمن مشيئة الله الكلية طبعاً»، ويختار بين الخير والشر

بعقلة ومن ثم فلا مسئولية على المجنون أو الصغير أو المكره وهو مسئول عن اختياره ويحاسب عليه يوم القيامة فضلاً عن وجود الجزاء الدنيوي.

وهكذا فالحرية هنا شرط لازم لتكليف الإنسان وحمله للأمانة ومسئولة عن أعماله وأقواله.

وإذا كان ذلك شأن الإنسان حسب التصور الإسلامي، فإن النظام الإسلامي ككل يؤكد ويساعد ويحقق تلك الحرية، فنظام الشورى في الإسلام يحقق أوسع مناطق تلك الحرية، وكذا فإن النظام الاجتماعي الإسلامي يحقق الإشباع المادي لكل إنسان حتى لا تكون الحاجة حائلاً دون حرية التفكير والتدبير، والنظام الاجتماعي الإسلامي بما فيه من تحقيق للعدل، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، النقد والنقد الذاتي، طلب العلم.. كلها لتحقيق تلك الحرية فالعلم مثلاً يزيد مساحة الوعي ومن ثم القدرة على حرية التعبير، والعدل يجعل الإنسان آمناً إذا عبر عن رأيه، والنقد والنقد الذاتي هو في صميمه نوع من حرية الرأي واعتبار ذلك واجباً على المسلم تجاه الأمة وتجاه المجتمع وتجاه أخيه المسلم والنظام الأخلاقي الإسلامي الذي يمنع شرب الخمر والزنا والشذوذ ولعب الميسر.... إلخ كلها تقوي الإنسان والمجتمع على أداء واجب حرية التعبير، بل حتى العبادات المباشرة كالصلاة هي نوع من الطاعة لله أولاً ثم لتحقيق أهداف قوة النفس والبدن وعدم الخوف إلا من الله ومن ثم القدرة على إبداء الرأي دون خوف، وشهادة أن لا إله إلا الله ومن ثم الشجاعة في قول الحق، والصيام، فمن لم يدع قول الزور والعمل به أي في المقابل أن يصبر على قول الحق والعمل به، فلا حاجة لله في أن يدع طعامه وشرابه، والحج مثلاً هو اجتماع لتبادل الرأي بين المسلمين كل عام، والزكاة هي نظام اجتماعي تحقق رفع الفقر والبطالة عن المجتمع ومن ثم يصبح غير خاضع في رأيه

إلا للحق وليس لصاحب المال أو السلطان.....الخ

هناك أيضا محطات ومواقف كلها تدل على الحرية عموما وحرية التعبير خصوصا، وهناك وثائق تاريخية مثل وثيقة المدينة، أو خطب الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وغيرها تشكل علامات مضيئة في تاريخ الحضارة الإسلامية وكلها تؤكد على حرية الرأي.

على أننا يجب أن نعترف بأن أحوال المسلمين ليست على ما يرام، وأنه غاب عنهم الكثير من تلك القيم وأن من الواجب عليهم استعادتها ليس من أجل أنفسهم فقط، فلن يتقدموا إلا بها، ولكن أيضا من أجل تقديم نموذج حي للشعوب الأخرى، وتقديم بديل حضاري رائع للنظم السائدة حاليا في العالم، والتي جلبت الشقاء للإنسان، وإذا استمرت يمكن أن تقود البشرية إلى كارثة ومن ثم فإن التقدم بالمشروع الإسلامي واجب وضرورة لإنقاذ البشرية وهذا واجب كل الأمة عموما، والعلماء منها خصوصا ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَّا يَتَّبِعُ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوْامِرَ اللَّهِ وَارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ١٤٣].



الإنسان في التصور الإسلامي

للحرية في الإسلام، ومن ثم كافة أشكالها بما فيها حرية التعبير أصل منهجي، يرجع إلى التصور الإسلامي عن الإنسان، ودوره في هذا الكون ومسئوليته التي أسندها إليه تعالى.

فالله تعالى خلق الكون كله، وخلق الإنسان أيضاً، وأفضل صور الإنسان هي في عبوديته لله تعالى، وهذا جوهر الحرية، لأن العبودية لله تعالى تحرر تجاه كل ما هو سوي الله تعالى. وقد سخر الله تعالى الكون لخدمة الإنسان:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠]، وجعل الله الإنسان خليفة له في الأرض، وهذا تكريم ما بعده تكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، وقد اختار الإنسان أن يحمل الأمانة وهذه الأمانة هي حرية الاختيار، أو المسؤولية، أو الإيمان أو العقل على اختلاف التفسيرات ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] وبداية فحمل الأمانة، واستخلاف الإنسان في الأرض، وتسخير الكون له تقابله مسؤولية، فالإنسان مسؤول أمام الله، فإذا أحسن وعمل فاز فوزاً عظيماً وإذا أساء وعمل عملاً سيئاً خسر خسراناً مبيناً ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا

وَاتَّبَعْتُهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿[الطور: ٢١]﴾ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] والمسئولية حسب الطاقة طبعاً ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وهو أيضاً ليس مسئولاً عن تصرفات غيره ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤] هكذا فالإنسان في التصور الإسلامي كائن عاقل مسئول مكلف، ويتحمل مسؤولية اختياره وعمله، ومن ثم لا يمكن إسناد هذه المسؤولية الخطيرة إليه دون أن يتاح له عقل يستطيع أن يميز به بين الخير والشر، وأن تكون له حرية الاختيار بين مختلف المناهج والأعمال، وهكذا فالحرية تأتي في صميم المنهج الإسلامي، والإنسان ليس حراً في كل شيء طبعاً بل هو حر فيما هو مسئول عنه ومكلف به، وهذا كله بالطبع في إطار مشيئة الله تعالى، ويمكن القول أن الله تعالى أراد أن يكون للإنسان إرادة. ﴿وَنَقِيرُ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۖ ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۖ ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۖ ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

في إطار المشيئة الإلهية أيضاً، جعل الله التفكير فريضة إسلامية أي جعل المعرفة بالنسبة للإنسان تكون عن طريق استخدام العقل أو يكون استخدام العقل أحد طرق الوصول إليها، وبديهة فإن هناك طرق أخرى للوصول إلى الهدية والحق،

الطريق الوجداني وهو لا يقل أهمية، وطريق الفطرة، وهذه تحتاج إلى إلغاء كل القيود والحواجز على الإنسان لتعمل فطرته بصورة سليمة، إنها أشبه بالسير في الطريق الصحيح، ولكن القوي الشيطانية تضع علامات مزيفة لتفسد على الإنسان فطرته وتقوده إلى الطريق الخطأ، وهذه العلامات المزيفة مثل الاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي الأعلام الفاسد.... الخ

ويجب إزالتها لتحقيق حرية الاختيار عن طريق العقل، أو عن طريق الفطرة والوجدان....

المهم أن التفكير فريضة إسلامية فرضها الله على الإنسان وأعطاه العقل الملائم ليقوم بها، ومن ثم يصل إلى المعرفة عن طريق العقل، وصمم الكون بطريقة معينة بحيث أن فيه من الآيات والتدبير ما يقود الإنسان إلى الحق، والنصوص التي تدعو إلى إعمال العقل في القرآن الكريم كثيرة جداً، ويستخدم الله لفظ العقل ومرادفاته الكثيرة في تلك الآيات وكثير أيضاً من الآيات تنتهي بمثل «أفلا يعقلون؟ أفلا يتفكرون؟ أفلا يتدبرون؟ أليس منكم رجل رشيد؟ أفلا تتذكرون؟».

وهناك دعوة أيضاً للسير في الأرض والاتعاظ بما حدث في التاريخ ومعرفة السنن الكونية في مختلف العلوم^(١): ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أَولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].



(١) تحدث القرآن الكريم عن الحكمة في ١٩ آية، وعن العقل في ٤٩ آية وعن اللب أحد مرادفات كلمة العقل. في ١٦ آية وعن النهي - أحد مرادفات العقل أيضاً - في آيتين، وكذا عن التفكير والتدبير والعقل أو عن الآيات التي ترشد الإنسان والآيات التي تتحدث عن النظر قد تكررت أكثر من ٥٠ مرة في القرآن الكريم.

التوحيد

التوحيد هو الحقيقة الكبرى في هذا الكون، وهو المقوم الأول للعقيدة الإسلامية، والتوحيد هو الرسالة الجوهرية التي جاء من أجلها جميع الأنبياء من لدن آدم وحتى محمد صلي الله عليه وسلم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

وقد تعرضت عقيدة التوحيد- في حياة الأمم السابقة من أهل الكتاب- إلى الكثير من التحريف والخلط، إلا أن الله تعالى حفظ للإسلام والمسلمين باعتباره خاتم الأديان، وباعتبار محمد صلي الله عليه وسلم آخر الأنبياء، وباعتبار القرآن الكريم آخر الكتب السماوية - حفظ له القرآن من التحريف، وأصول العقيدة من التشويش ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]

وهكذا فإن التوحيد هو أهم ما يميز أمة الإسلام عن غيرها من الأمم.

والتوحيد بالطبع شرط لصحة العقيدة والنجاة في الآخرة وهو أيضاً دافع مهم من دوافع الإبداع الحضاري وتحقيق العمران في الأرض، وكذا لتحقيق كل أشكال الحرية، وللتوحيد آثار مهمة على الصعيد الحضاري، ذلك أن انفراد الله تعالى بالألوهية والربوبية، وإدراك أن جميع البشر عباد الله يعني بالتالي ضرب مفاهيم الطبقية والعرفية الاقتصادية والسياسية والجنسية واللونية، وليس هناك فرد أو طبقة أو جماعة بشرية أفضل من غيرها أو أحق بالثروة أو السلطة، والتفاضل لا يكون إلا بالتقوى.

والتوحيد أيضاً يمنع احتكار الدين لطبقة، أو المتاجرة به من قبل رجال الدين

المنحرفين، أو ممارسة الاستبداد السياسي أو الاستئثار بالثروة، بدعوى أن هذا أو ذاك هو ظل الله على الأرض، أو المتحدث باسمه أو شعب الله المختار، فالله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وجميع الناس عباد لله.

ولقد حرص الإسلام على إدماج التشريع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، حتى يكون الله وحده مصدر التشريع وبالتالي لا يستغل فرد أو طبقة أو مجموعة سلطتها في سن التشريعات التي تكرر سلطتها السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ومهمة أمة الإسلام الأولى هي إخراج العباد من عبادة العباد بأي صورة من الصور إلى عبادة الله الواحد القهار.

وللتوحيد أهمية خاصة في المشروع الحضاري الإسلامي ذلك أن العمران البشري، كالعبادة، مرتبط بغاية هي إرضاء الله تعالى، ومرتب بأسلوب هو الأسلوب الذي وصفه الله تعالى في تشريعه المحكم، وهذا أولاً يحقق أوسع الحريات، وأسلم وسائل العلاقات الإنسانية، بين الإنسان والكائنات والطبيعة في تناغم وتناسق يحفظ للأرض وللكون أمانه في الحاضر والمستقبل، فضلاً عن هذا فإن مقتضى التوحيد يعني الخضوع لله تعالى في ممارسة العمران البشري كوسائل وغايات، أي الخضوع لشريعة الله في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والعلاقات الدولية.. إلخ، وهذا بالطبع يحقق أفضل الفرص للإبداع الحضاري وأكثرها أماناً وعدلاً وجدوى، ذلك أنه مهما أوتي فرد أو جماعة بشرية من العلم فإنها لا تحيط بأسرار الإنسان والكون وبالتالي لا تستطيع أن تضع التشريعات الصالحة للعلاقات بين البشر أو بين البشر والكون والكائنات فضلاً عن حرص هذا الفرد أو الجماعة البشرية على تحقيق مصالحها الخاصة دون الباقين، أما الله تعالى إله الناس جميعاً رب الناس جميعاً وخالق كل شيء، العالم بكل شيء فهو وحده

القادر على وضع التشريع المناسب لكل البشر والكائنات والكون بدون تحيز وبعلم وشمول وإدراك مطلق.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]

وللتوحيد أيضاً أهميته في إطلاق طاقات الإنسان التي أودعها الله فيه، لأن الإنسان الموحد يسير في اتجاه الفطرة، وبالتالي يوفر الوقت والجهد المترتب على الصراع مع الفطرة، والأمر أشبه بسرعة سفينة ذات كفاءة ميكانيكية معينة تسير في اتجاه التيار أو في عكس هذا الاتجاه، وبالطبع فإنها في الحالة الأولى تحقق سرعة أكبر وإنجازاً أكثر.

والإنسان الموحد يؤمن بأن الله هو أقوى الأقوياء، فلا يخاف غيره، وهو الرازق فلا يلتمس الرزق من غيره وهو المعز المذل وبيده مقاليد كل شيء وبالتالي يستطيع أن يواجه أعتى القوى معتمداً على الله تعالى، وهذا يجعل الأمة الموحدة أكثر إنجازاً وأقدر على خوض كل التحديات وبالتالي يكون للتوحيد الأثر الجبار في التقدم الحضاري والعمران البشري، وهكذا فالتوحيد هو العنصر الأهم في المشروع الحضاري الإسلامي، إذ لو قارنا بين جماعة بشرية تدرك أن عملها الحضاري مرتبط بالله في الغايات والوسائل ووجدت أمامها تحدياً أكبر من طاقتها، فإنها لا تفر أمامه بل تأخذ بالأسباب وتشحن طاقاتها ثم تتقدم معتمدة على مدد الله وبالتالي تستطيع أن تصنع المستحيل، أما الجماعة البشرية التي لا تؤمن بمدد الله، أي تؤمن بالأسباب وحدها فإن الحسابات المادية المجردة قد تجعلها تفر من أمام التحديات التي تراها بالحسابات المادية أكبر من طاقتها المادية.



كرامة الإنسان / الحرية

تمثل الحرية القيمة الأعظم - بعد التوحيد - بالنسبة للمشروع الإسلامي في مستواه العام والخاص، وتمثل القيمة الأعظم على الإطلاق بالنسبة للمشروع الحضاري العام، أي فيما يخص المسلمين وغير المسلمين.

ذلك أن رسالة الإسلام تستهدف تحرير الإنسان في كل زمان ومكان، وتستهدف تحقيق الحرية للبشر كل البشر، وحتى الجهاد في الإسلام موجه أساساً لرفع الظلم والإكراه ووضع البشر كل البشر على قاعدة الاختيار الحر بلا إكراه ولا تعصب ولا ظلم، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿وَكُلُوا شَاءَ رَبِّكَ لَا مَنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

فالإكراه مرفوض إسلامياً، حتى ولو كان إكراه على الإسلام لأنه في هذه الحالة يكون حراماً ولا يرضى به الله ويحاسب من يقترفه، والفرق بين الإسلام والوثنية في أحد صوره هو الفرق بين الحرية والإكراه، ذلك أن الوثنية والكفر لا تتحقق إلا بالإكراه والخداع، والإسلام لا يتحقق إلا بالحرية والاختيار الحر.

الإسلام يحرص على حرية التفكير، حرية الاختيار «اختيار العقيدة والمذهب

والتصور» - حرية اختيار شكل النظام السياسي وحرية اختيار الحكام بكافة درجاتهم وحرية تغيير الحاكم، حرية التنقل، حرية إقامة الشعائر، حرية الحوار، وحرية تبادل الرأي، ويرفض التعصب والاستبداد السياسي والقهر الطائفي والديني والقومي والعنصري.

أما الكفر فيحرص على القهر والنهب والظلم والاستبداد والقوى الشيطانية تحرص على الحيلولة دون حرية الاختيار وتحرص على وضع علامات إرشادية مزيفة على الطريق وتحرص على نشر التعصب، وتحرص على إلغاء حرية التفكير بكل صورة ووسيلة، وتحرص على نشر الجهل والخرافة والتعصب للأباء والأجداد والأسرة والقبيلة والوطن والقومية.. إلخ. ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣٣].

والقرآن الكريم يطلق على هذا السلوك الشيطاني كلمة «المكر وكلمة المكر تعني أصلاً الخداع والقهر واستخدام الوسائل المختلفة لإكراه الناس على العقيدة والتصور الذي تريده القوى الشيطانية ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣] ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ١٢٣] وهذه الآية على لسان فرعون.

وصحيح أن الناس تصل إلى الإسلام وتعتنقه بمجرد تحقيق حرية التفكير والحوار والاختيار الحر، لأن الإسلام دين الفطرة، والعقل والكون والوجدان، والقلب يقود إليه، ولكن حتى بصرف النظر عن هذا فإن أمة الإسلام مطالبة

بتحقيق الحرية للبشر كل البشر بصرف النظر عن النتيجة، إذ إن تحقيق الحرية غاية في ذاتها ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩] أي فقاتلوهم حتى يكفوا عن إكراه الناس على الكفر فإن كفوا عن هذا فلا مشكلة، فقاتلوهم حتى يكفوا عن فتنة الناس بالقهر والظلم السياسي والاقتصادي والاجتماعي فإن كفوا فلا عدوان إلا على الظالمين.

المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة مأمورون بالجهاد لتحقيق حرية الاختيار ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، ولتحقيق حرية التنقل ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إذ كيف يسير الناس في الأرض بدون حرية التنقل وبالجهاد ضد التعصب وضد الجهل والخرافة، ضد الاستبداد السياسي أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» صحيح حقه الألباني والتفكير فريضة إسلامية، والله تعالى يدعو الناس إلى التفكير في عشرات الآيات القرآنية ﴿أَفَلَا يَتَفَكَّرُونَ...﴾ ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ .. إلخ.

الدفاع عن الحرية فريضة إسلامية، وتحقيق الحرية بكل صورها وأشكالها مهمة المسلم والجماعة الإسلامية والأمة الإسلامية، بل إن المهمة الأولى لنا هي الدفاع عن حرية الشعوب والطوائف والأقليات والأفراد على حد سواء، حرية الناس في الاختيار على مستوى العقيدة، وعلى مستوى النظام السياسي والاجتماعي وعلى حقهم في اختيار طريقة وأسلوب الحكم وحق اختيار وعزل الحكام وعمر بن الخطاب يقول: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

وأبو بكر هو القائل: «إن وجدتموني على حق فأعينوني وإن وجدتموني على باطل فقوموني» والتقويم يعني حرية النقد وحرية خلع الحاكم أيضاً.



كرامة الإنسان

ومن مهام المشروع الحضاري الإسلامي تحقيق الكرامة للإنسان أي إنسان في أي زمان ومكان فلا قهر ولا تعذيب ولا تمثيل ولا انتهاك لهذه الكرامة بأي صورة من الصور، والأصل الإسلامي لحقوق الإنسان هو أفضل أشكال هذه الحقوق، لأنه ينطلق من أن كل البشر عبيد لله تعالى ومتساوون أمامه، فلا حق لبشر أن ينتهك كرامة بشر آخر ولا حق لجماعة بشرية ولا طائفة ولا دولة أن تنتهك حقوق الآخرين. وقد حرص الإسلام أيها حرص على صيانة حرمان الناس ولا يؤخذ الناس بالشبهات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تناجشوا ولا تحاسدوا.....» صحيح تخريج السيوطي حقه الألباني، «لا تضايقوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عوراتهم يتبع الله عورته..» «إذا ابتغى الأمير الريبة في الناس أفسدهم».

والشريعة الإسلامية تحيز فقء عين من يطلع على أسرار الناس : «لو أن امرءًا اطلع عليك بغير إذن فقدفته بحصاة ففقت عينه لم يكن عليك جناح» والقرآن الكريم يؤكد حرمة البيوت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

وحتى احترام طمأنينة الآخرين هي فريضة إسلامية «لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً».

الله تعالى كرم الإنسان، وجعله خليفة له في الأرض ونفخ فيه من روحه، وهذا المستوى العظيم الذي وضع الله الإنسان فيه - باعتباره خليفة له في الأرض وباعتباره كائناً فيه من روح الله، وباعتباره أكرم الكائنات تضع الأساس النظري والعملية لأفضل وأوسع الحقوق لصيانة كرامة الإنسان وحقوقه في نفسه وأهله وبيته وخصوصياته لأن الذي يعتدي على شيء من ذلك، أو ينتهك حقوق الإنسان فإنما هو يعتدي على أكرم المخلوقات أي على خليفة الله في الأرض، على كائن فيه من روح الله، والله تعالى جعل الملائكة تسجد للإنسان ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١] ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠] ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]



الانتصار للمظلومين فريضة إسلامية

- الإسلام يحض المظلومين على عدم السكوت عن الظلم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

ويحض المظلومين على الدفاع عن أنفسهم:

« ما من مسلم يظلم مظلومة فيقاتل فيقتل إلا قتل شهيدا ». حديث صحيح تخريج السيوطي .

ويحض على التصدي للظالمين:

« من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل أو بقول كان على الله أن يدخله مدخله » .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة إسلامية وهل يوجد منكر أكبر من الظلم الإسلام يأمر بالانتصار للمظلومين والدفاع عنهم:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ. وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مَن سَبِيلٍ. إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ هُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ [الشورى: ٣٩].

وقال رسول الله ﷺ: « ما من مسلم يخذل مسلماً في موضع تهتك فيه حرمة

ويُنْتَقَصُ فيه من عرضه إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته، وما من امرئ مسلم ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمة إلا نصره الله في مواطن يحب فيها نصرته.»

كما قال :

« لا يقفن أحدكم موقفاً يقتل فيه رجل ظلماً فإن اللعنة تنزل على كل من حضر حين لم يدفعوا عنه، ولا يقفن أحدكم موقفاً يضرب فيه رجل ظلماً فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه.»

الدفاع عن المظلومين فريضة إسلامية، المظلومين سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً، فرداً أو جماعة أو أمة أو طائفة وفي عالم يسوده الاستكبار وتمارس دولاً وحكومات وجماعات بشرية وأفراداً الظلم على الآخرين، فإن الدفاع عن المظلومين يصبح رقماً مهماً في معادلة المشروع الحضاري الإسلامي

والله تعالى شرع الجهاد وفرضه على المسلمين للدفاع عن المظلومين مسلمين أو غير مسلمين، في كل زمان ومكان ورفع الظلم عن البشر أياً كان دينهم أو جنسهم أو لونه ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣]

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥].

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٩]

وفيا يرويه الرسول ﷺ عن رب العزة : «وعزتي وجلالي لأنتقم من الظالم في عاجله أو آجله، وأنتقم من رأى مظلوماً فقدر أن ينصره فلم يفعل.»

ويقول : « ما من مسلم يخذل مسلماً في موضع تهتك فيه حرمة وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موضع يجب فيه نصرته، وما من امرئ مسلم ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه ويتهتك فيه من حرمة إلا نصره الله في مواطن يحب فيها نصرته ».

ويقول : « من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل أو بقول كان على الله أن يدخله مدخله ».

ويقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه ».



حرية التعبير: الفريضة والآداب

حرية التعبير فريضة على الحاكم والمحكوم معاً، فالحاكم مطالب بتنفيذها عن طريق الشورى، وعن طريق تحقيق العدل والنظام القضائي المستقل، ونشر التعليم، وتحقيق الاكتفاء الاقتصادي وغيرها من الوسائل التي تجعلها ممكنة بحيث لا تخاف الرعية من ظلم أو فقر أو تهيش إذا مارستها، والمحكوم مطالب بها فرداً وجماعات في كل المجالات تجاه الحاكم وتجاه الآخرين، وبدون حرية التعبير وكل ما يؤدي إليها يحدث خلل في المجتمع الإسلامي، فالمسلم مطالب بعدم كتمان الشهادة السياسية والاجتماعية والقضائية على حد سوء ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]

والنصيحة فريضة إسلامية لله ورسوله وللإمام ولعامة المسلمين وخاصتهم، والتواصي بالحق مثلاً فريضة إسلامية لا بد أن يقوم بها الفرد والجماعات تجاه بعضها بعضاً، ﴿وَالْعَصْرُ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ٣﴾ [العصر: ١-٣] ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ١٢﴾ فَكَرَبَةٍ ١٣ ﴿أَوْ إِبْطَةِ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبٍ ١٤﴾ يَتَّبِعَهَا مَقْرَبَةٌ ١٥ ﴿أَوْ مَسَكِينًا ذَا مَتَرَبَةٍ ١٦﴾ ثُرَكَانَ ١٧ ﴿مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ ١٨﴾ [البلد: ١٢-١٧]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَتَّعُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿[المائدة: ٢]﴾، «وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [آل عمران: ١٠٤].

بل إن خيرية هذه الأمة ترتبط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا لا يتحقق في جزء كبير منه إلا بحرية التفكير ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

بل إن الله تعالى فرض قيام مجموعة من الناس ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ وهذه بداية لا تتحقق إلا بالتعليم وبحرية التعليم معاً ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ومن الواجب الاستماع إلى الحكمة أو الموقف الصحيح وفي الحديث الشريف: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله أن يعمهم بعقابه» تخرج السبوطي في الجامع الصغير حقه الألباني وقال حديث صحيح. وعمر بن الخطاب القائل: «رحم الله امرءاً أهدي إلى عيوبي» وهو الذي يحمد الله تعالى أن يكون في أمة الإسلام من يقوم الخليفة إذا رأي منه اعوجاجاً، ويستمع إلى امرأة مُحْطِيءٍ رأيه في المهور مسترجعاً قائلاً: «كل الناس أفقه منك يا عمر» وعمر بن الخطاب نفسه أستمع إلي نقد الرجل وهو على المنبر أي أمام جمع من الناس عندما قال لهم: أسمعوا وأطيعوا، فقال له الرجل: إنك وزعت القماش علينا وأخذت منه نصيباً أكبر، لأنك رجل طويل لا يكفي نصيبك من القماش لعمل هذا الثوب الذي

ترتدي، فطلب عمر من ابنه أن يقوم ويشهد أنه أعطي أباه نصيبه فضم النصيبين على بعضهما بعضا فكان هذا الثوب ، عندئذ جلس الرجل وقال الآن نسمع ونطيع، وكان عمر رضي الله عنه يستشير حتى الكفار في الأمور التي هم خبراء فيها فقد استشار الهرمزان في الحرب الفارسية وكان عمر أيضا لا يقصر مشورته على الشيوخ بل يلجأ إلى الشباب ويستشيرهم كما روي يوسف بن الماجشون . «فكان إذا أعياه الأمر دعاهم فاستشارهم لحدة عقولهم» وكان أسلوبه حين يريد اختيار أحد الولاة أن يذكر الشرط ويترك للسامعين الاختيار.

وهكذا فإن حرية التعبير فريضة إسلامية على الحاكم والمحكوم معاً ولكن لها آدابها التي لا تصلح بغيرها، وفي الحقيقة فإن كل الفرائض الإسلامية أيضا لها آدابها، وليس هذا انفراد بتلك الآداب بالنسبة لحرية التعبير، ومن تلك الآداب أن تكون حرية التعبير والنصيحة تستهدف صالح المجتمع وإلا تكون لأغراض مريبة، وألا تحدث فتنة حتى ولو كانت نصيحة صحيحة، فالمحافظة على الاستقرار ووحدانية الجماعة فريضة أكبر، وهنا لا بد من الموازنة وحساب المصالح والمفاسد، ولا بد أن تكون طريقة النصيح وممارسة حرية التعبير فيها سباحة، وألا تكشف عورة لفرد أو جماعة، وألا تنتهك حقوق الآخرين، وعلى أن تكون في إطار التراحم، تراحم الكبير بالصغير وتوقير الصغير الكبير، وألا تكون حقا يراد به باطل ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِثُهُمْ بِالنِّبَاتِ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ

الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿[الحجرات: ١١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿[الحجرات: ١٢].

فإذا أراد إنسان أن ينهي إنسان آخر عن عمل حرام فلا يحق له أن يدخل بيته مثلاً دون استئذنه ليقوم بذلك ولا ينظر داخل البيت أو يسترق السمع عليه فيعرف أنه يشرب خمرًا مثلاً، فيأمره وينهاه، ولعل في قصة عمر بن الخطاب عندما استرق السمع ونظر ودخل بيت أحد الرعية دون استئذنه، وأراد أن يعاقبه على شرب الخمر، فقال الرجل إنني فعلت حراماً واحداً، وأنت ارتكبت عدة محرمات، فراجع عمر وأقر الرجل على صحة كلامه.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿[الأعراف: ١٩٩].

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿[النساء: ١١٤].

ولعل من أهم آداب حرية التعبير، ألا يشتد الإنسان على الآخرين في غير فريضة واجبة، وألا يعتقد نفسه على صواب دائماً، فيلزم الآخرين بإتباع رأيه أو اجتهاده اجتهاده سواء كان صواباً أم خطأ، طالما أنه ليس معلوماً من الدين بالضرورة، ومن الآداب أيضاً: ألا يفتي الإنسان بغير علم ولا تخصص دقيق، أو يجعل من نفسه معياراً للصواب أو الخطأ.



المنظومة الإسلامية السياسية والاقتصادية والاجتماعية

المنظومة الإسلامية السياسية والاقتصادية والاجتماعية منظومة كلها خير، ذلك أنها من عند الله تعالى الذي يعلم ما يصلح الإنسان والجماعة الإنسانية وما يفسرهما ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وهي تحتوي على مساحات محددة فيها تشريع واضح ومحدد ومساحات أخرى متروكة تلاحقها والبشرى في إطار المنهج الإسلامي ومن خلال النصوص ذاتها والتصورات الإسلامية ومن خلال التطبيق ثبت أنها أفضل منظومة عرفتها البشرية في كل تاريخها الاجتماعي، وهي صالحة إن شاء الله للتطبيق في كل زمان ومكان، وهي القدرة في عالمنا المعاصر على إنقاذ البشرية من التخبط والتيه والشقاء والمعاناة .



المنظومة الاجتماعية الإسلامية

وهذه المنظومة شديدة الاتساع، ولا يمكن الإحاطة بها، وكلها تؤدي إلى حرية الرأي وتجعله فريضة على الجميع، على الحكام ألا يعطلوها، وعلى الرعية أن تؤديها مع الحاكم ومع الأمراء ومع بعضهم البعض، وبديهي أن هذه المنظومة تشمل النظام الأخلاقي الذي يؤدي بالضرورة إلى رقي الفرد ومسئوليته ومن ثم قدرته على الإدلاء برأيه، وتشمل العدل ونظام القضاء، فبدون العدل ونظام قضائي مستقل يكون من الصعب ممارسة حرية الرأي وفي هذا الصدد فإن كتمان الشهادة إثم كبير ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، والشهادة هنا تشمل كل الأنواع، الشهادة على الشئون العامة وعلى الشئون الخاصة، في السياسية والاجتماع والقضاء وكل شيء وتحذير الرسول صلى الله عليه وسلم من شهادة الزور، هي دعوة لقول الحق، والشجاعة في إبداء ذلك الحق، وفي خطبة الصديق بعد توليته الخلافة ما يدل دلالة قاطعة على ضرورة حرية الرأي وعلى فرضيتها « إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، فإن استقممت فاتبعوني، وإن زغت فقوموني»، المنظومة الاجتماعية تشمل أيضا الدعوة إلى العلم، والمسئولية عن المستقبل وحماية الأقليات.... الخ... وكلها تقود إلى فرد ومجتمع قادرين على أداء أمانة حرية التعبير.

العدل:

العدل قيمة كبرى من قيم المشروع الإسلامي في مستواه العام، أي فيما يخص

المسلمين وغير المسلمين، وعلينا أن نبشر بالعدل ونأمر به ونأخذ به أنفسنا ونأخذ به الآخرين ونجاهد من أجل فرض العدل وتحقيقه في كل مكان ونصرة المظلوم أياً كان وفي أي مكان كان.

يجب أن نكون عادلين مع أنفسنا ومع الآخرين، عادلين في كل شيء في الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية على حد سواء، ويجب توخي العدالة في المنازعات القانونية المحلية والدولية، بين الأفراد وبين الجماعات وبين الأمم على حد سواء، يجب توخي العدالة وذلك بعدم ازدواج المعايير القانونية، فما يطبق على الشريف يطبق على الضعيف وما يطبق على الحاكم يطبق على المحكوم، وما يطبق على الأصدقاء والأحباء يطبق على الأعداء والمكروهين، وما يطبق على الغني يطبق على الفقير.

يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]. ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

والله تعالى يتوعد الظالمين ﴿إِنَّهَا السَّيْلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ هُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٢] ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ [آل عمران: ٥٧]
 ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ
 وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦]

وفي الحديث القدسي : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً...» حديث صحيح.

«إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة...» حديث صحيح.
 ومن الأقوال المأثورة : «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة».
 «الظلم يجلب النقم ويسلب النعم».
 «لا يكون العمران حيث يجور السلطان».

عدم ازدواج المعايير :

ومن أهم مقومات العدل في الإسلام وجود معايير واحدة تنطبق على الجميع بدون استثناء، على من نحب ومن نكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]

على الأقربين والأبعدين بل على أنفسنا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

على الشريف والضعيف : «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف قطعوه، وإيم الله لو أن فاطمة بنتي سرقت لقطعت

يدها».

على القوي والضعيف فأبو بكر الصديق رضي الله عنه هو القائل : «القوي منكم ضعيف حتى أخذ الحق منه والضعيف قوي حتى أخذ الحق له».

ويروي التاريخ الإسلامي أن أميراً من أمراء الغساسنة كان يطوف بالبيت في عهد عمر بن الخطاب فوطئ إزاره شاب من قراره فلطمه الغساني لطمه جدعت أنفه، فذهب الشاب إلى الخليفة عمر بن الخطاب وشكا إليه، فقال عمر : للغساني له القصاص أو يعفو عنك، قال : كيف وأنا أمير وهو سوقيه؟ فقال عمر : لقد سوى الإسلام بينكما فلا تفاضل إلا بالتقوى فأخذ الأمير يسترضي الشاب الأعرابي، فلم يرض إلا أن يلطمه كما لطمه، وعلم الأمير أن الخليفة عمر سيمكن هذا الأعرابي من القصاص لا محالة ففر إلى الروم مرتداً عن الإسلام، فما اهتم عمر بذلك، فإنه خير للإسلام أن يخرج منه أمير على أن يمارس ازدواج المعايير.

وعندما ضرب ابن حاكم مصر أي ابن «عمر بن العاص» عندما ضرب القبطي المصري، أمر عمر بن الخطاب خليفة المسلمين عندما وصل إليه الأمر - أن يضرب القبطي المصري ابن حاكم مصر بنفس الطريقة قصاصاً له وقال قولته المشهورة : «اضربه كما ضربك اضرب ابن الأكرمين».

والرسول ﷺ لم يستنكف أن يضع نفسه موضع القصاص وعرض نفسه للناس ليأخذوا حقوقهم منه حيث صعد المنبر قبيل وفاته قائلاً ما معناه : «أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري.. ومن كنت أخذت منه مالا فهذا.. ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي..» الحديث.

وعمر بن الخطاب يعطي الدرة للرجل ليضربه كما ضربه عندما اكتشف عمر بن الخطاب أنه ضربه بغير حق، ولكن الرجل يمتنع فيقول له : اعف عني فيقول

الأعرابي : ولا أعفو حتى أن عمر بات ليلته مغتماً، فلما رآه الأعرابي في اليوم التالي وجد أثر الألم والهلم على وجهه، فقال الأعرابي لعمر بن الخطاب : لعل هذا لما كان بالأمس، فقال عمر الخليفة العادل : نعم فقال الأعرابي : الآن عفوت عنك.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمر قضاته بالتسوية بين الخصوم في المجلس والنظر والإشارة والإقبال وقال في كتابه إلى أبي موسى الأشعري : «سويين الخصمين في مجلسك وإشارتك وإقبالك، حتى لا ييأس ضعيف من عدلك، ولا يطمع قوي في ضعفك».

ويروى أن أبا موسى الأشعري ضرب بعض رعيته أسواطاً وعلم ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأرسل عمر إلى أبي موسى الأشعري، يقول له : لقد عذمت عليك إن كنت ضربته في ملأ من الناس فليضربك بينهم، فلما حضر الرجل، وضع أبو موسى الأشعري نفسه في موضع الاستعداد لتلقي الضرب بالسوط، فعفا الرجل عنه.

ويروى أيضاً أن عمرو بن العاص قال لأحد الرجال : يا منافق وكان ذلك في المسجد، فذهب الرجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له : «لقد نفقني الأمير- وكان عمرو بن العاص أميراً- وما نافقت منذ أن أسلمت، فأرسل عمر إلى «عمرو» وقال له : إن كنت نفقته في ملأ، فليضربك كذا سوط، فذهب الرجل إلى المسجد وقال : من منكم سمع الأمير ينفقي، قالوا : كلنا سمعنا، فقرأ عليهم الكتاب فقال البعض : «أو تضرب الأمير؟! وصاحوا فيه مستنكرين ذلك، فقال الرجل : ليس لأمر المؤمنين هنا طاعة، فقدم عمرو بن العاص نفسه إلى الرجل ليضربه، فقال الرجل : الآن عفوت.

ووصل أمر العدل وعدم ازدواج المعايير «أن المسلمين كانوا قد دخلوا بلداً

يدعي صفد في إقليم سمرقند واشتكى أهل البلد إلى عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين أن القائد الإسلامي قتيبة بن مسلم قد دخل ديارهم من غير أن يتبع معهم سنة الإسلام في تخييرهم بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، بل قاتلهم قبل أن يعرض عليهم هذه الخيارات، وحول الخليفة هذه الشكوى إلى القاضي، فدرس القاضي الموضوع وتبين صدق الشكوى، فأمر الجند بالخروج من الديار التي دخلوها، ونفذ الجند الأمر، وتركوا مدينة صفد امتثالاً للعدالة الإسلامية التي لا تعرف ازدواج المعايير.

وهكذا تعكس نصوص الإسلام العدل وعدم ازدواج المعايير كأروع ما يكون، وتعكسها أيضاً ممارسات الإسلام وحضارة الإسلام، ولا شك أن التركيز على هذه القيمة يعطي دفعة قوية للمشروع الحضاري الإسلامي أمام البشر جميعاً وهم الذين يعانون الآن وقبل الآن من غياب العدل ومن ازدواج المعايير في ظل الحضارة الغربية. كما يحقق أروع معاني الحرية.

اللاعنصرية :

عانت البشرية طويلاً، وما زالت تعاني حتى هذه اللحظة، من الممارسات العنصرية للحضارة الغربية، ومنذ تفوق الحضارة الغربية وقهرها للعالم وسيطرتها عليه، وهي تمارس أشكالاً متعددة من العنصرية من إبادة أجناس كاملة «الهنود الحمر» والتطهير العرقي للشعوب كالبوسنة والهرسك، أو استرقاق السود وإقامة أنظمة الفصل العنصري - ، وما زال الوجدان العنصري والممارسات العنصرية موجودة في أمريكا وأوروبا، لأن العنصرية جزء أصيل من القيم الحضارية الغربية.

ولا شك أن إبراز المساواة الإنسانية واللاعنصرية وهي من السمات الأساسية في الإسلام، لا شك أن إبراز هذه النقطة تشكل نقطة إضاءة كبيرة للمشروع الإسلامي في مستواه العام ويعكس الإسلام- وتعكس الحضارة الإسلامية على

المستوى النظري والتطبيقي أروع صور المساواة واللاعنصرية ف«الناس سواسية كأسنان المشط» و«إن أكرمكم عند الله أتقاكم» و«لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»، «كلكم لآدم وآدم من تراب»، «إن الله أذهب عنكم عصبية الجاهلية وتفاخرها بالآباء والأجداد، الناس لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».

ولم تكن مصادفة أن التجربة الإسلامية الأولى قامت على أكتاف رجال كان منهم الكثيرون من العبيد والموالي أمثال بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وزيد بن حارثة.. وغيرهم، وكان من هؤلاء العبيد والموالي الكثير من قادة الإسلام العظام في كل مجال عسكري أو سياسي أو ثقافي، وكان منهم العلماء في العلوم الدينية والدنيوية على حد سواء وأسهم هؤلاء إسهاماً كبيراً في بناء وازدهار الحضارة الإسلامية، التي شارك فيها الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، التركي والفارسي والعربي على حد سواء.

ولعل إحدى السمات التي عاشت حتى الآن مع المسلمين ولم تتعرض للضعف في وجدانهم وسلوكهم برغم حالة الانحطاط التي يعيشونها هي روح المساواة الإنسانية واللاعنصرية، حيث إن المسلمين حتى الآن لا يعطون لاختلاف اللون أو الجنس أي اهتمام ويمارسون اللاعنصرية كسلوك عادي.

العناية بالضعيف:

العناية بالضعيف محور مهم من محاور المشروع الإسلامي ولعل الإسلام دون المذاهب والفلسفات الاجتماعية والسياسية جعل للضعفاء حقوقاً نظرية وعملية، وجعل هذه الحقوق واجبة وجزءاً من العقيدة والإيمان^(١)، فالعطف على الصغير

(١) من الناحية النظرية مثلاً فإن الماركسية لا تعترف بتلبية حاجات غير القادرين على العمل «لكل حسب طاقته».

والكبير والآباء واجب شرعي^(١)، ورعاية الأبناء الصغار وتربيتهم وتلبية حاجاتهم البدنية والنفسية وتهذيبهم وتعليمهم واجب شرعي على الآباء فإن غاب الآباء فعلى الأقارب وإلا أثموا ويمكن للتقاضي الشرعي أن يلزمهم بذلك.

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦] وكذلك فللفقراء والمساكين والعاجزين عن العمل حق معلوم لدى الدولة الإسلامية ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩] والأيتام كذلك يحرص الإسلام على رعايتهم أيها رعاية ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩]

وقال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى». صحيح تخريج السيوطي حققه الألباني

والضعفاء عموماً من أيتام ومساكين وفقراء وصغار وكبار سن وغرباء ومرضى وعاجزين ومعوقين لهم حقوق - نكرر حقوقاً - معلومة في أبواب الفقه الإسلامي : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۚ﴾ (١) ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يُدْعُ الْيَتِيمَ ۚ﴾ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَتِيمِ (٣) [الماعون: ١-٣] وللرحمة بعد الحقوق باب كبير من أبواب الإسلام، والله تعالى وصف نفسه بالرحمة، وجعلها من أفضل الأخلاق والممارسات التي يتقرب بها العبد إلى ربه.

والعناية بالضعفاء يكملها العناية بكل الكائنات غير البشرية والمسلم رحيم بكل

(١) وكذلك البر بالآباء ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِنِّيَ ۚ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِنَّمَا بَيْنَكَ وَالْكَرْبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لِّمَنْ أَمْرٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٣) وَأَنْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

مخلوقات الله تعالى «إذا ذبحنا علينا أن نحسن الذبح» وتعذيب الحيوانات والطيور محرم شرعاً و«امرأة دخلت النار في قطة حبستها» والرحمة بالحيوان طريق إلى الجنة و«رجل دخل الجنة في كلب عطشان سقاه» و«إن في كل كبد رطبة لأجر والإنسان مسؤول أمام الله عن إطعام الحيوانات والمواشي التي يستخدمها ويقتنيها، ومسؤول» أيضاً عن عدم إرهابها بالعمل - ومسؤول حتى عن نظافتها، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يخاف أن يحاسبه الله تعالى عن دابة تتعثر في الطريق لأنه لم يسو لها الطريق وهذه الحقوق التي يتمتع بها الضعفاء في المجتمع الإسلامي لا تنصفهم فقط بل تفتح أمامهم الطريق إلى حرية التعبير.

النقد والنقد الذاتي:

النقد والنقد الذاتي أحد مكونات المشروع الإسلامي، والنقد والنقد الذاتي يبدأ هنا بالاعتراف بالحالة التي وصلت إليها أمتنا، والبحث عن أسباب هذه الحالة، وطرق التخلص منها وتجاوزها وبناء نهضتنا وسيادتنا الحضارية من جديد.

والاعتراف بها وصلنا إليه يقتضي بالطبع الاعتراف بأننا الآن في حالة هزيمة حضارية، أمام الحضارة الغربية بالتحديد، وأن بلادنا مغتصبة ومخرقة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً، وخاضعة بصورة أو بأخرى للهيمنة الغربية، وأننا وصلنا إلى هذه الحالة من التفكك والانحطاط والخضوع نتيجة عوامل كثيرة ترجع إلى التآمر العالمي على أمة الإسلام وترجع أيضاً إلى تخليها عن قيم إسلامية كثيرة وضرورية، وإلى سلبيتها وقصر نظرنا، وترجع إلى الحكام والمحكومين على السواء، وبكلمة أخرى فإن لها أسبابها الخارجية والداخلية معاً، والنقد والنقد الذاتي كفيل بتحديد هذه الأسباب وكفيل أيضاً بوضع الحلول الصحيحة لمواجهة التحديات والسلبيات الخارجية والداخلية على حد سواء.

والنقد والنقد الذاتي في قيمنا ومبادئنا وتراثنا الحضاري مساحة كبيرة، وأهمية خاصة، وهي من الفرائض الإسلامية والممارسات اليومية على مستوى الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة على حد سواء.

التوبة الفردية التي يمارسها المسلم في كل يوم عشرات المرات هي نوع من النقد الذاتي، والتوبة الجماعية التي يمارسها المسلمون في صلاة الجماعة أو في الحج أو غيرها من المناسك هي أيضاً نوع من النقد الذاتي، والتوبة هنا ليست مجرد توبة عن الخطايا أو الذنوب الأخلاقية فقط، بل هي أيضاً التوبة من الأخطاء الاجتماعية والسياسية، والآيات القرآنية التي نزلت بعد غزوة أحد مثلاً تؤكد ضرورة التوبة أو النقد، ألم تكن تلك الآيات تنتقد مواقف وسلوك المسلمين. وتحلل أسباب الهزيمة؟ وهي درس لنا لتعلم النقد وتحليل الأخطاء الجماعية، والمرأة المسلمة التي خطأت عمر بن الخطاب خليفة المسلمين وهو فوق المنبر كانت تمارس النقد، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما استمع إلى هذا النقد واعترف بخطئه جهاراً وعلناً وأمام حشد من المسلمين كان يمارس النقد الذاتي ويقبل النقد في نفس الوقت ويرسي معالم النقد والنقد الذاتي وهو القائل «أصاب امرأة وأخطأ عمر».

والمسلم مرآة أخيه - أليست هذه دعوة من الرسول ﷺ إلى النقد بل إلى وجوب النقد؟ «ورحم الله امرأ أهدى إلى عيوبي» تأتي أيضاً في هذا السياق؟

والآيات القرآنية الداعية إلى التوبة فردية وجماعية كثيرة جداً، بل إن الله يخص بحبه التوابين ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

﴿وَوَهَبْنَا لِذَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

أي : أن النقد الذاتي صفة من صفات الأنبياء، والله تعالى يجعل هذه الصفة من الصفات التي يستحق بها العبد أن يمدحه ربه قائلاً : ﴿ نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ . وهكذا فالنقد والنقد الذاتي فريضة وواجب على مستوى الفرد والجماعة والأمة، سرّاً وعلناً.

العلم:

لا شك أن تحصيل العلم يوسع مدارك الإنسان ومن ثم يزيد قدرته علي ممارسة حرية التعبير

ويشكل العلم- بصورته الشاملة- عنصراً هاماً من عناصر المشروع الإسلامي، وتأتي العلوم التجريبية والتقنية على رأس أولويات النهضة الإسلامية المرجوة ذلك أن أحد أسباب هزيمتنا وانحطاطنا الحضاري يرجع إلى إهمال الأخذ بأسباب العلم عموماً والعلوم التجريبية خصوصاً، والتفوق الأوروبي الهائل علينا هو في جوهره تفوق علم وتكنولوجيا، وصحيح أن العلم في المشروع الإسلامي يستخدم لصالح الإنسان ولتحقيق أكبر قدر من السعادة لكل البشر، ولا يكون على حساب البيئة أو الكائنات الأخرى أو موجهاً لتحقيق أكبر قدر من المنفعة للأخلاقية على حساب الإنسان، أو لحساب مجموعة من البشر على حساب باقي البشر بعكس الحضارة الغربية التي تسببت في شقاء البشرية منذ صعودها

ولا تناقض هناك بين الإسلام والعلم، بل إن الإسلام يحض على العلم، وقد شهدت العلوم جميعاً وخاصة التجريبية منها ازدهاراً واسعاً في ظل الحضارة الإسلامية أيام ازدهارها، وكانت هذه العلوم هي الأساس التي قامت عليه النهضة العلمية في أوروبا.

ولا شك أن نشر العلم والحصول على أحدث الحقائق العلمية والوسائل التقنية واجب شرعي، أيّاً كان مصدر ومكان هذا العلم «.. ومن سلك طريقاً يلتمس فيه

علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة..» (رواه مسلم)، «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها»، وفي هذا الصدد فإننا ندرك أن الحضارة الأوروبية لن تقدم لنا العلم بسهولة لأنها تريد باستمرار أن نظل متخلفين وخاضعين، علينا أن ننتزع هذه العلوم انتزاعاً، لاحظ أن أمريكا حاکمت المهندس المصري عبد القادر حلمي بتهمة سرقة التقنية الأمريكية!

وعلى كل مسلم أن يفعل ما يستطيع للحصول على العلم، ويعمل على تعليم الآخرين، لأن من يحجب العلم آثم شرعاً وبالتالي فإن التعليم هنا يصبح واجباً شرعياً وغاية لترقية الأمة والإنسانية وليس مجرد الحصول على خبرات علمية تحقق لصاحبها الكسب الشخصي والرقى الفردي أو الحصول على مركز اجتماعي أو مكاسب مادية. وتعليم الآخرين واجب شرعي كذلك، وعلينا أن نستفيد بخبرات العديد من العلماء البارزين في مختلف الأقطار الإسلامية، وكذلك ذلك الجيش الجرار من العلماء المسلمين المغتربين في أوروبا وأمريكا وغيرها ووضع خطة طموحة للاستفادة من خبرات هؤلاء العلماء.

ويجب أيضاً أن يكون محور الأمية أولوية لدى المسلمين لأنه من العار علينا ونحن أمة «اقرأ» أن يكون بيننا من لا يعرف القراءة والكتابة، ورسولنا الكريم يقول: «إنما بعثت معلماً».

ورسول الإسلام يقرر أن ساعة من دروس العلم خير من سبعين ساعة عبادة، ومداد العلماء يوزن يوم القيامة بدماء الشهداء، أي أن العلم والتعليم هو وحدة الذي يعادل مقام الجهاد والاستشهاد وهو مقام رفيع كما نعرف، ولعلنا نلتفت إلى المعنى المتضمن في كون أول آية نزلت من القرآن الكريم هي: «اقرأ» وهي دعوة مباشرة لتقديم العلم والتعليم على ما عداه.

والآيات التي تحض على العلم في القرآن الكريم تزيد على ٧٥٠ آية في حين أن تلك المتعلقة بالفقه حوالي ١٥٠ فقط، وكذلك هناك الآيات التي تحض على السير في الأرض والنظر في علومها المختلفة كالأحياء والجيولوجيا والجغرافيا وغيرها ﴿قَدْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾.

إنصاف المحرومين:

في عالم يستأثر فيه ٢٠٪ من السكان بكل أو معظم الثروات على حساب ٨٠٪، في عالم يجوع فيه الناس بل يموتون جوعاً «يموت في إفريقيا وحدها ٥٠ مليون من الجوع سنوياً منهم ١٥ مليون طفل»، في عالم فيه اختلال مروع في توزيع الثروة سواء على مستوى القارات، حيث تستأثر قارات على حساب قارات أخرى، أو على مستوى الدول.

حيث تستأثر بالثروات دول على حساب دول أخرى، أو حتى داخل الدولة الواحدة حيث تستأثر طبقة على حساب طبقة، فإن إبراز اهتمام المشروع الحضاري الإسلامي بإنصاف المحرومين اقتصادياً والدعوة إلى عدالة توزيع الثروة أمر له أهميته في إقناع العالم بالمشروع الحضاري الإسلامي، وهو أيضاً فرض شرعي علينا تجاه الأمم والشعوب والأفراد المحرومين.

ونحن مطالبون بالدعوة إلى إعادة توزيع الثروة في العالم على مستوى العلاقات الدولية وقوانين التجارة وأسعار الخامات ونقل الخبرات العلمية والاهتمام بالتدريب والتعليم لتحقيق أكبر قدر ممكن من الثروة والنهضة للدول المختلفة والقارات المختلفة.

ومطالبون أيضاً داخل كل دولة على حدة بالانحياز للفقراء والمحرومين، والعمل على استعادة حقوقهم الاقتصادية والقضاء على التفاوت الطبقي ومنع

استثثار طبقة بالخيرات على حساب طبقة أو طبقات أخرى وننتقل في هذا الأمر من إدراكنا بأن الثروات المتاحة في العالم تكفي جميع سكان العالم آلاف المرات وليس في هذا مبالغة. وأن الحرمان والفقر الموجود في هذا المكان أو ذاك يرجع الى سوء توزيع الثروة أو عدم استغلالها أصلاً ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ١٨] وبالتالي فإنه من غير المعقول ولا من الطبيعي أن يستمر الجوع والفقر في العالم برغم كل هذه الثروات وعلينا أن نجاهد لرفع الظلم عن المحرومين أفراداً وشعوباً واستعادة حقوق هؤلاء المحرومين.

ولا شك أن الدعوة إلى إشباع حاجات الناس جميعاً أصل إسلامي واضح ﴿ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧] وفي الحديث : « ليس المؤمن بالذي يشبع و جاره جائع إلى جنبه » .

التخريج : صحيح.

المرجع : صحيح الجامع الصغير.

تخريج السيوطي : (خد طب ك هق) عن ابن عباس .

تحقيق الألباني : (صحيح) انظر : حديث رقم : ٥٣٨٢ في صحيح الجامع .

والجار هنا قد يكون فرداً أو أسرة أو مدينة أو دولة أو قارة.. وهكذا « إذا جاع الناس فلا مال لأحد » .

« من كان عنده فضل ظهر فليجد به على من لا ظهر له .. » وعدد جميع أنواع النعم . حديث شريف .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخُمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهَا أَكْبَرُ مِنْ

تَفْعِيهَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿البقرة: ٢١٩﴾ أي على الإنسان أن ينفق على المحرومين كل ما زاد عن حاجته. «لأخذت أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء» قول لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

«ما حرم فقير إلا بما متع به غني» قول لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أي الحرمان يأتي من الظلم وسوء توزيع الثروة.

حماية الأقليات:

من العناصر المهمة في المشروع الإسلامي في مستواه العام مسألة حماية الأقليات، وفضلاً عن أنها فريضة شرعية، فإنها أيضاً تعكس القيم العظيمة لحضارة الإسلام بحيث تصبح هذه المسألة نقطة جذب حضاري لدخول العالم في المشروع الحضاري الإسلامي ولا شك أن الكثير من الأقليات الدينية والعرقية والقومية في العالم تعاني من الاضطهاد منذ أن سادت وهيمنت الحضارة الغربية على مقدرات العالم.

والأصول النظرية، والممارسات العملية في حضارة الإسلام تمثل أروع وأعظم ما عرفته البشرية في هذا الإطار فبداية فإن الإسلام يخدم خصوصية الأقليات ويحرص على تأكيدها: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ويدعو إلى احترام الجماعات البشرية بعضها بعضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] ويجعل المعيار القانوني واحداً بالنسبة للأقلية والأغلبية فلا ازدواج معايير هناك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرِ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَتَتَّعُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً

وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿[المائدة: ٢]﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿[المائدة: ٨]﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿[النساء: ١٣٥] .

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨] ويقول الرسول ﷺ: «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به».

ويقول «من ظلم معاهداً أو ذمياً أو كلفه قومه فوق طاقته فأنا حججه يوم القيامة».

وفي هذا الصدد نقل عن المفكر الإسلامي إسماعيل الفار وفي قوله «لقد بلغ المجتمع الإسلامي حدوداً تفوق التصور في توفير حرية الاعتقاد للآخرين، وقد حدد المسلمون تلك الميزة - حرية الاعتقاد - التي منحها الله لليهود والمسيحيين والصابئين في القرآن الكريم - حتى شملت الزرادشتيين والهندوس والبوذيين والمجوس والموالين للديانات الأخرى عندما اتصلوا بها».

ويقول الكاتب الإسلامي فهمي هويدي: «لم يقتصر الأمر على مجرد حماية الأقليات وتحقيق حرية الاعتقاد للآخرين، بل تعدى إلى قيام المسلمين بحفظ التراث الحضاري للديانات الأخرى».

ويروي شكيب أرسلان في مقال له بعنوان: التعصب الأوروبي أم التعصب

الإسلامي «أن أحد الوزراء العثمانيين كان مرة في أحد المجالس في جدال مع بعض رجال الدولة الأوروبيين فيما يتعلق بهذا الموضوع، فقال لهم الوزير العثماني: إننا نحن المسلمين من ترك وعرب وغيرهم مهما بلغ بنا التعصب في الدين فلا يصل بنا إلى درجة استئصال شأفة أعدائنا ولو كنا قادرين على استئصالهم - ولقد مرت بنا قرون وأدوار كنا قادرين فيها على ألا نبقي بين أظهرنا إلا من أقر بالشهادتين وأن نجعل بلداننا كلها صافية للإسلام فما هجس في ضمايرنا خاطر كهذا الخاطر أصلاً.

وكان إذا خطر هذا ببال أحد ملوكنا كما وقع للسلطان سليم الأول العثماني تقوم في وجهه الملة ويواجهه أمثال زنبيلي أفندي على شيخ الإسلام ويقول له بلا محاباة: ليس لك على النصارى واليهود إلا الجزية وليس لك أن تزيجهم عن أوطانهم فيرجع السلطان عن عزمه امتثالاً لشرع الله الخنيف، فيبقى بين أظهرنا حتى أبعد القرى وأصغرها نصارى ويهود وصابئة وسامرة ومجوس وكلهم كانوا - وآخرون - لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، أما أنتم معاشر الأوروبيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد، واشترطتم على من أراد البقاء بينكم أن يتنصر، ولقد كان في أسبانيا ملايين وملايين من المسلمين، وكان في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا وجنوبها مئات الألوف منهم، ولشوا في هذه الأراضي أعصرًا مديدة، وما زلتم تستأصلون منهم حتى لم يبق في هذه البلدان شخص واحد يدين بالإسلام، ولقد طفت بلاد أسبانيا كلها فلم أعثر فيها على قبر واحد يعرف أنه قبر مسلم».

وفي إطار الحضارة الإسلامية، عاشت الأقليات ومارست عقيدتها وحريتها، بل شاركت في الممارسات الحضارية الإسلامية، وقد بلغ التسامح الإسلامي الديني في تجربة الحضارة الإسلامية في الأندلس مبلغاً عظيماً، ولدت أسماء مسيحية ويهودية في إطار الحضارة الإسلامية ولعل ابن ميمون الأندلسي خير شاهد على ذلك فبرغم

كونه يهودياً يعيش في مجتمع مسلم، إلا أن ذلك لم يعفه من أن يصبح مفكراً أو فيلسوفاً بارزاً.

وفي الحقيقة فإنه إذا كانت الأقليات قد مارست حريتها في ظل الحضارة الإسلامية، وإذا كانت هذه الأقليات في الشرق بالذات وفي حالة أقباط مصر على وجه الخصوص قد اندمجوا في الحضارة الإسلامية وساهموا في صنعها وازدهارها، وأصبحوا بالتالي جزءاً منها بحيث إنهم أصبحوا ينتمون إلى الإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن وإن اختلفوا في الدين والعقيدة، فإن هذا يعني أن المشروع الحضاري الإسلامي يضم المسلمين ويضم مسيحيي الشرق عموماً وأقباط مصر خصوصاً، وأن هؤلاء كالمسلمين سواء بسواء سوف يحملون قيم المشروع الحضاري الإسلامي إلى العالم أجمع. وهكذا فإن هناك مساحة واسعة لحرية التعبير للفرد والجماعة للمسلم وغير المسلم.

استقلال القضاء:

لا يكون عدل، ولا تكون حرية، ألا بقضاء مستقل نزيه، ولعل كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري تمثل وثيقة هامة في هذا الصدد،^(١) فمنذ ما ولي عبد الله بن قيس «أبو موسى الأشعري» القضاء في خلافة عمر بن الخطاب كتب إليه عمر كتاباً بعدد من المحددات لتحقيق عدالة القضاء ونزاهته وقد جاء فيه:

- أن التشريعات العادلة وحدها لا تكفي، بل لابد من قاض يحكم بها ولا بد من أن يضعها موضع التنفيذ «أنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له».

(١) النويري. نهاية الأرب في فنون الأدب - طبعة القاهرة - جزء ١٩.

- أن الحق لا يبطله شيء، فإذا اجتهد القاضي وأخطأ، فإن عليه التراجع عن ذلك، مهما تقادم الزمن، وهذا التوجيه يفتح الباب لإمكانية استئناف حكم القاضي أمامه هو نفسه أو أمام غيره «لا يمنعك قضاء قضيت به بالأمس فراجعت فيه نفسك، وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق لا يبطله شيء، واعلم أن مراجعة الحق خير من التماهي في الباطل».

- أن الصلح متاح بشرط ألا يكون على حساب الحق، فالحق هو المعيار عند الصلح وعند النزاع على حد سواء «والصلح جائز بين الناس إلا ما أحل حراماً أو حرم حلالاً».

- أنه يجب المساواة بين المتخاصمين في مجلس القضاء، مهما كان الفرق بينهما في المنزلة العلمية أو الدينية أو السياسية أو المالية، وكذا يجب على القاضي أن يعاملهما بحياد تام «أس بين الناس في مجلسك ووجهك»

- أن جميع المسلمين سواسية في الشهادة بصرف النظر عن مراكزهم الاجتماعية إلا في بعض الأمور التي تقدح في شهادتهم مثل شهادة أحدهم بالزور من قبل، أو كان قريباً لأحد الخصوم أو معروف بالولاء له «والمسلمون عدول في الشهادة، إلا مجلوداً في حد، أو مجرباً على شهادة زور، أو ظنيماً في ولاء أو قرابة»

- استخدام الفهم والعقل فيما لم يرد فيه قرآن أو سنه «الفهم - الفهم» فيما ليس فيه قرآن أو سنة.

- استخدام القياس كوسيلة من وسائل الفهم في القضاء «واعرف الأشباه والأمثال» ثم قس الأمور بعد ذلك.

- أن القضاء فريضة محكمة وسنة وثيقة.

والقضاء في الإسلام مستقل، لا يتدخل فيه السلطان، بل هو نفسه يخضع لهذا

القضاء ويكون على قدم المساواة مع الخصم أمام القاضي فقد سأل عمر بن الخطاب رجلاً له قضية : «ماذا صنعت فقال الرجل قضي على بكذا، قال عمر لو كنت أنا لقصيت بكذا قال صاحب القضية فما يمنعك والأمر إليك؟ فقال عمر : لو كنت أردك إلى كتاب الله أو إلى سنة نبيه لفعلته، ولكنني أردك إلى رأيي، والرأي مشترك^(١) .

وأخذ النظام الإسلامي بمبدأ فصل السلطات، فجعل للقاضي وظيفة غير وظيفة التنفيذ ما لم ينص على ولاية خاصة في أمر ولايته قال أحمد بن إدريس القرافي في الذخيرة^(٢) : «ولاية القضاء متبادلة حكم لا يتدرج فيها غيره، وليس للقاضي السياسة العامة لا سيما الحاكم الذي لا قدرة له على التنفيذ، وأما قوة التنفيذ فأمر زائد على كونه حاكماً، فقد يفوض إليه التنفيذ وقد لا يتدرج في ولايته، وليس للقاضي قسمة الغنائم وتفريق أموال بيت المال على المصالح وإقامة الحدود وترتيب الجيوش وقتال البغاة».

وكان الخلفاء يقترون على أنفسهم ويوسعون في أرزاق القضاة، فكان رزق سليمان بن ربيعة الباهلي في عهد عمر خمسمائة درهم مشاهرة وكذلك كان رزق شريح في عهد علي ، وجرت سنة الخلفاء بعدهم على التوسعة في أرزاق القضاة وترجيهم على الولاة.

ومن الآداب المطلوبة للقاضي : «ألا يشتري بنفسه ولا بوكيل معلوم حتى لا يسامح في البيع» وكان الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز يقول : «تجارة الولاة مفسدة وللرعية مهلكة، فكان يغني القضاة بسعة الرزق عن التكسب والاتجار»^(٣) .

(١) ابن الأثير «أسد الغابة في معرفة الصحابة» - طبعة دار الشعب القاهرة.

(٢) نقلاً عن عباس محمود العقاد - الديمقراطية في الإسلام - نهضة مصر القاهرة - ط ٢٠٠٥.

(٣) نقلاً عن عباس محمود العقاد - نفس المرجع السابق .

١- خطبة أبي بكر الصديق بعد توليته الخلافة

«أما بعد، أيها الناس، فإني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي منكم ضعيف عندي، حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم....»

أيها الناس، إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفوني ما كان رسول الله صل الله عليه وسلم يطيق، إن الله اصطفى محمدًا على العالمين، وعصمه من الآفات. فإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقممت فاتبعوني، وإن زغت فقوموني. وإن رسول الله ﷺ قبض، وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمطلب، ضربة سوط فما دونها، ألا وإنها لي شيطان يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني، لا أؤثر في إشعاركم وأبشاركم، وإنكم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه، فإن استطعتم ألا يمضي هذا الأجل إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله. فسابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تسلمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال، فإن قومًا نسوا آجالهم، وجعلوا أعمالهم لغيرهم، فأنا كم أن تكونوا أمثالهم؛ الجد الجد، والوحي الوحي، والنجاة النجاة، وإن وراءكم طالبًا حثيثًا، أجل مره سريع، واحذروا الموت، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبط به الأموات.

إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه، فأريدوا الله بأعمالكم، واعلموا

أن ما أخلصتم لله من أعمالكم ، فطاعة أتيتموها ، وحظ ظفرتم به ، وضرائب أدتموها ، وسلف قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم ، واعتبروا يا عباد الله بمن مات منكم ، وفكروا فيمن كان قبلكم .

أين كانوا أمس ؟ وأين هم اليوم ؟! أين الجبارون الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة ومواطن الحروب ؟ قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رميما ، قد تركت عليهم القالات ، الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات . وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها ، قد بعدوا ، ونسى ذكرهم ، وصاروا كلا شيء . ألا إن الله قد أبقي عليهم التبعات ، وقطع عنهم الشهوات ، ومضوا والأعمال أعمالهم ، والدنيا دنيا غيرهم ، وبقينا خلفاً بعدهم ، فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا . أين الوضاء الحسنة وجوههم ، المعجبون بشبابهم ؟ صاروا ترابا ، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم .

أين الذين بنوا المدائن ، وحصنوها بالحوائط ، وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم ، فتلك مساكنهم خاوية وهم في ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزا ؟! .. أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم ؟ قد انتهت بهم آجالهم ، فوردوا على ما قدموا ، فحلوا عليه ، وأقاموا للشقوة أو السعادة فيما بعد الموت ، ألا إن الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيرا ، ولا يصرف به عنه شرا إلا بطاعته واتباع أمره . واعلموا أنكم عبيد مذنبون ، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته .

ألا وإنه لا خير بخير بعده النار ، ولا شر بشر بعده الجنة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .



٢- خطاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري

«بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر، أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن قيس. سلام عليك. أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له.

آس بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا يئس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعي، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين الناس، إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا. ولا يمنعك قضاء قضيت بالأمس فراجعت فيه نفسك وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق لا يبطله شيء. واعلم أن مراجعة الحق خير من التهادي في الباطل. الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سنة. واعرف الأشباه والأمثال، ثم قس الأمور بعد ذلك، ثم اعمد لأحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما تري.

اجعل لمن ادعي حقا غائبا أمدا ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذ بحقه، وإلا استحلت عليه القضاء. والمسلمون عدول في الشهادة، إلا مجلود في حد، أو مجربا عليه شهادة زور، أو ظنينا في ولاء أو قرابة. إن الله تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم بالبينات. وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن الذخر، فإنه من صلحت سريرته فيما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للدنيا بغير ما يعلم الله منه شئ الله. والسلام.



النظام الاقتصادي في الإسلام

لا تتحقق حرية تعبير ما لم يكن الناس في مأمن من الفقر والحاجة، وألا تكون هناك بطالة وتعطل، وإذا كان البعض يري أن الحرية مستحيلة مع بقاء تحكم الأغنياء في الفقراء فإن هذا صحيح، ولكن من الصحة أيضاً أن نختار الطريق الأفضل لتحقيق الحد الأدنى من الرزق والعمل لكل الناس دون أن تسوي بين النشطاء والكسالى. وهذا يحققه النظام الاقتصادي في الإسلام، بل أن هذا النظام أيضاً يرتب حقوقاً للعاجزين وغير القادرين على العمل، على عكس الاشتراكية العلمانية مثلاً التي ليس فيها من الناحية النظرية وناحية المذهب الاقتصادي أي حقوق للعاجزين «فكل حسب عمله» بل ويحدث أن تظهر حركات مثل النازية تطلب إعدام غير القادرين على العمل والمسنين لأنهم عالة على المجتمع، ولكن الإسلام يكرم هؤلاء أيما تكريم، ويجعل إعطائهم حقهم في الحياة والرزق واجباً لا يتم الإيمان إلا به .

ومن القواعد العامة في الإسلام، أن المال مال الله والناس مستخلفون فيه، وألا تكون الأموال دولة بين الأغنياء ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، ويحرم الإسلام كنز المال وعدم إنفاقه على الفقراء والمحتاجين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، ويكره طغيان الغني

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّافٍ﴾ [العنق: ٦، ٧]، ويحرم الإسلام الربا أي الكسب بدون عمل أو مخاطر ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّا الْبَائِعُونَ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ويدعو إلى العمل، وتوفير العمل لكل قادر «إن أفضل الكسب، كسب الرجل من يده، وإن الله يحب العبد المحترف ويكره العبد البطال» وكذا حرم الله الرشوة ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]

النظام الاقتصادي الإسلامي :

نتحدث عن النظام الاقتصادي في الإسلام بالشكل الذي يظهر :

- ١- رفض الإسلام لكافة أشكال الاستغلال الاقتصادي،.
- ٢- أننا لسنا مجتهدين بالقدر الذي يسمح لنا باستنباط المذهب الاقتصادي من النصوص أو الواقع الإسلامي مباشرة؛ وبالتالي فلم يكن أمامنا إلا أن نأخذ باجتهد من بحثوا في هذا الشأن الأستاذ المودودي في مؤلفاته المختلفة وكذلك مقالاته المترجمة إلى العربية تحت عنوان « مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة ».
- والأستاذ سيد قطب (العدالة الاجتماعية في الإسلام)، (معركة الإسلام مع الرأسمالية) .
- الأستاذ محمد الغزالي (الإسلام والمناهج الاشتراكية)، (الإسلام وأوضاعنا الاقتصادية)، (الإسلام والاستبداد السياسي) .
- الدكتور مصطفى كمال وصفي (مقالات في مجلة المسلم المعاصر، ومجلة الدعوة) .

الدكتور مصطفى السباعي (في كتابه اشتراكية الإسلام).

الدكتور محمود أبو السعود (كتابه خطوط رئيسية في الاقتصاد الإسلامي ، ومقالات في مجلة المسلم المعاصر).

وفي محاولتنا لدراسة الاقتصاد الإسلامي يجب أن نلاحظ ما يأتي:

أولاً: إن الاقتصاد الإسلامي جزء من كل: بمعنى ارتباط الاقتصاد الإسلامي بمفاهيم وعقائد ونظم الإسلام، وعدم إمكان دراسته وتطبيقه بمعزل عنها.

ثانياً: الاقتصاد الإسلامي اقتصاد أخلاقي وواقعي في غاياته وفي طرقه كذلك.

ثالثاً: الاقتصاد الإسلامي اقتصاد متميز عن المذاهب الرأسمالية والشيوعية والاشتراكية وهو مخالف لها في أساسها النظري، مخالف لها في أساليبه، مخالف لها في غاياته وإن تشابهت بعض التفاصيل بين النظام الإسلامي وإحدى هذه النظم ليس إلا من قبيل تشابه عيون شخصين مثلاً دون أن تربطهما رابطة دم أو جنس.

رابعاً: إن الاقتصاد الإسلامي لا يسمح بأي شكل من أشكال الاستغلال.

خامساً: إنه اقتصاد يحقق الحد المتوازن من الحياة الكريمة لكل فرد دون أن يضع عائناً دون الارتفاع إلى آفاق عليا دون ظلم أو استغلال.

سادساً: إنه اقتصاد يضع على عاتق أولي الأمر إتاحة فرص العمل لكل قادر والحاجة لكل محتاج حتى لا يبقى فقير أو عاطل في المجتمع الإسلامي دون النظر إلى دينه أو جنسيته.

سابعاً: إنه اقتصاد مخطط بمعنى أنه يجعل للدولة الإشراف المركزي على الإنتاج والتوزيع.

الهيكل العام للاقتصاد الإسلامي :

١ - مبدأ الحرية الاقتصادية في نطاق محدود.

٢ - مبدأ الملكية ذات الأشكال المتنوعة.

٣ - مبدأ العدالة الاجتماعية.

مبدأ الملكية ذات الأشكال المتنوعة :

* في الرأسمالية: الملكية الخاصة هي المبدأ العام، والملكية العامة استثناء لظروف القاهرة.

* في الاشتراكية: الملكية العامة هي المبدأ العام، والملكية الخاصة استثناء لظروف القاهرة.

* أمّا الإسلام: فإنه يسمح بملكيّات ذات أشكال متنوعة وليس لإحداها صفة المبدأ العام والأخريات استثناء بل بوصفها تعبر عن تصميم مذهبي أصيل قائم على أسس مذهبية ثابتة وموضوعة داخل إطارها.

* الملكية العامة: وهي عامة لمجموع المسلمين مثل الأراضي العامرة بشرياً حال الفتح الإسلامي (الأراضي الخراجية).

* ملكية الدولة: مثل الأنفال (كل الثروات الطبيعية من غابات ومعادن).

* ملكية خاصة: تكتسب فقط عن طريق العمل الاستثماري بما لا يهدد التوازن العام. مع ملاحظة أن الملكية الخاصة ذات مجال ضيق ويترتب عليها واجبات محددة تجاه الله وتجاه الجماعة، والملكية الخاصة وكالة عن الله الذي استخلف الجماعة في الثروة؛ الملكية الخاصة أداة وليست غاية في ذاتها وليست معياراً للكرامة أو الفضل في المجتمع..

مبدأ الحرية الاقتصادية في نطاق محدد:

الإسلام لا يصادر الحرية الاقتصادية تمامًا كما تفعل الاشتراكية، كما أنه لا يتركها بدون حدود كما يملئ النظام الرأسمالي.

ولكن الإسلام لا يعترف بالحرية الاقتصادية إلا في نطاق محدود ويجعل لها حدودًا تتمثل في:

١- تحديد ذاتي - نابع من أعماق النفس بناءً على التربية الإسلامية، وانتشار المفاهيم الإسلامية في المجتمع. يلاحظ أن التحديد الذاتي دون التحديد الموضوعي ظل هو الضمان الوحيد لأعمال البر والخير بين المسلمين بعد انتهاء تطبيق الشريعة الإسلامية وخسارة الإسلام لتجربته في الحياة، وفقدانه للقيادة السياسية والاجتماعية للحياة...

٢- تحديد موضوعي:

أ- تشريعات محددة تمنع أعمالاً محددة مثل: الغش، والميسر، والربا، وغيرها.

ب- إشراف ولي الأمر على الممارسة الاقتصادية وإعطائها التوجيه الصحيح لصالح المجتمع وبما لا يهدد التوازن؛ فيمكن أن يؤمم أو يمنع من ممارسة اقتصادية معينة حتى ولو كانت في أصلها مباحة والمعياري في هذا الأمر هو مصلحة الأمة الإسلامية.



المشكلة الاقتصادية في الإسلام وحلولها

تتمثل المشكلة الاقتصادية في نظر الرأسمالية في الندرة بمعنى عدم قدرة الموارد الطبيعية على تلبية احتياجات الإنسان المتجددة.

وتتمثل في الماركسية في التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات التوزيع.

أما في الإسلام:

فيقول الله تعالى: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وتلك الآيات الكريمة تقرر في وضوح:

١- أن الله تعالى قد خلق للبشرية من الثروات الطبيعية ما يلبي احتياجاتها جميعاً دون قصور ونفاد.

٢- أن المشكلة تكمن في الإنسان ذاته بسبب أنه ظلم كفار:

أ- كفار بعدم استخدامهم الثروات الطبيعية، وعدم استثمارها بشكل علمي.

ب- ظلم بعدم ممارسته عدالة التوزيع.

ولكن كيف عالج الإسلام هاتين القضيتين الأساسيتين وهي الإنتاج والتوزيع؟

أ- الإنتاج:

يدعو الإسلام إلى التنمية الاقتصادية بالتحريض على ذلك عقائدياً وفكرياً

وتشريعيًا.

- الإنتاج في الإسلام يخضع لمبدأ الإشراف المركزي.
- للدولة دور قيادي في التنمية الاقتصادية.
- الإنتاج يهدف إلى إشباع جميع حاجات الأفراد.
- يرفض الإسلام إنتاج الموارد الكمالية أو نصف الضرورية إلا بعد استكمال إنتاج الموارد الضرورية تمامًا.
- يرفض المجتمع الإسلامي إنتاج أدوات الترف والمجون رفضًا تامًا.

ب- التوزيع:

العمل والحاجة هما أساسا التوزيع في الإسلام، ولقد نظم الإسلام التوزيع بشكل يضمن منع وقوع الظلم والاستغلال ولم يسمح بالتملك إلا بالعمل الاستثماري غير الاحتكاري، ومنع الإسلام التملك عن طريق الحيازة في الثروات الطبيعية

يلاحظ أن الحاجة تدخل في التوزيع لعدم قدرة بعض البشر أصلاً على العمل كالعاجزين مثلاً، كما أن بعض الناس ينتجون أقل مما يحتاجون بسبب ضعفهم، وقد جعل الإسلام لهؤلاء وأولئك الحق في إشباع حاجاتهم. وضمن لهم نصيباً من الثروة.



حقوق الفرد في المجتمع الإسلامي

- ١- حق الحياة.
- ٢- حق الكرامة.
- ٣- حق الحرية (حرية العقيدة - حرية إبداء الرأي - حق النشر).
- ٤- حق العمل لكل قادر.
- ٥- حق التعليم والعلاج المجاني.
- ٦- حق كل مواطن (ذميًا كان أو مسلمًا) في المأكل والمسكن والمواصلات.
- ٧- حق كل مواطن في الزواج وتكوين أسرة.

والسؤال الآن كيف تستطيع الحكومة الإسلامية تحقيق ذلك؟؟

إذا قررنا أن المجتمعات البشرية لم تشهد الفقر والظلم الاجتماعي بسبب قلة الموارد ولكن بسبب سوء توزيعها فإن الأمر يبدو واضحًا أن الفقر المدقع لا يوجد إلا بسبب الغنى المترفع.



كيف قضى الإسلام على الفقر والاستغلال؟

مقولة إن الفقر ينشأ من قلة الموارد مرفوضة إسلامياً بسبب كثرة الموارد التي أتاحتها الله سبحانه للبشر.

والفقر ينشأ إما من عدم الاهتمام بالتنمية أو عن سوء التوزيع، وبالنسبة للأمر الأول فالإسلام يحث على التنمية كما تقدم شرحه وعلى هذا يبقى أمر واحد وهو استئثار قلة بالموارد وحرمان الأغلبية الساحقة، أو ما يعبر عنه رجال الاقتصاد بالاستغلال الاقتصادي والذي ينشئه:

أ- ممارسة البعض لأموال غير منتجة مما يشكل عبئاً على المجتمع كممارسة (الدعارة - والقمار) وغيرهما مما حرّمه الإسلام.

ب- ممارسة البعض لعمليات التهريب والرشوة والاتجار بقوت الشعب واحتكار المواد الضرورية وهي أمور يعاقب عليها الإسلام ويتوعد من يفعلها.

ج- إثراء البعض عن طريق الربا وهو محرم إسلامياً.

د- احتكار البعض للثروات الطبيعية وهو محرم شرعاً فإن هذه الثروات الطبيعية إمّا مملوكة ملكية عامة، أو مملوكة للدولة، أو مباحة إباحة عامة للجماهير ولا يصح فيها أخذ الفرد لأكثر من حاجته الشخصية فقط.

إن للإمام صلاحيات ضخمة بشأن اتباع الأسلوب الأمثل لاستغلال تلك الثروات بما يحقق مصالح الأمة

هـ- ممارسة البعض لأساليب الإنتاج الرأسمالي وبالتالي امتصاص فائض قيمة العمل المأجور لصالحهم.

والإسلام يرفض تملك الثروات الطبيعية عن طريق الاحتكار.

ويرفض الوكالة والاستثمار في استغلال الغابات مثلاً.

ومن هنا لم يترك الإسلام أمام الفرد إلا العمل المباشر كشرط للتملك

و- لم يبق أمام الفرد لممارسة الملكية الخاصة إلا العمل المباشر الذي يقوم به بنفسه

- وهذا بالطبع محدود بالنسبة لأثره على التوازن الاجتماعي ومع هذا رتب الإسلام على ذلك ظروفًا وشروطًا تمنع من خروجه عن الحدود المرسومة له بل وخوّل الإمام حق تأميم أي ملكية إذا بدأت تمارس إخلالاً بالتوازن الاجتماعي.

من هذا يتضح أن الإسلام قطع الطريق تمامًا على الاستغلال؛ وبالتالي لن يوجد

فقر (لكثرة الموارد، وعدم وجود استغلال) أضف إلى ذلك تشريعات العدالة

الاجتماعية تحصل على منهج فذ في تحقيق الحقوق المشار إليها سابقاً، وخروج

المجتمع السعيد إلى عالم الوجود.



العدالة الاجتماعية في الإسلام

الحديث عن العدالة الاجتماعية في الإسلام يعني أساسًا ممارسة الدولة الإسلامية لدورها في تحقيق الرخاء لكل مواطن، وإعطاءه الحق كما سبق في التعليم المجاني والعلاج المجاني، وأن تكفل له الدولة المأكل والملبس والمواصلات كما سبق توضيحه. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ممارسة صلاحيتها بشأن منع الاستغلال وتحقيق التوازن الاجتماعي. وعلى هذا فإنه وبالإضافة إلى ما تقدم فإننا بصدد بحث:

١. التوازن الاجتماعي.

٢. الضمان الاجتماعي.

التوازن الاجتماعي:

في مفهوم الإسلام (ألا يكون المال دولة بين الأغنياء) وهو عدالة توزيع الثروة - وهو تضيق الفوارق بين طبقات الناس - هو أن نجعل الفرق بين أكثر الناس غني وأقلهم غني (وليس أفقرهم فليس في المجتمع المسلم فقير) فرقًا في الدرجة وليس تفاوتًا رهيبًا كما نرى ونلمس في سائر الأنظمة الاقتصادية المعاصرة. والدولة تحقق ذلك عن طريق:

أ- فرض ضرائب ثابتة تؤخذ بصورة مستمرة وينفق منها لتحقيق ورعاية التوازن العام.

ب- إيجاد قطاع للملكية الدولة وتوجيه الدولة لاستثمارها لأغراض التوازن.

ج- طبيعة التشريع الإسلامي الذي ينظم الحياة الاقتصادية في مختلف الأحوال.

والحكومة الإسلامية ملتزمة في هذا الإطار بضغط مستوى المعيشة من أعلى بتحريم الإسراف، وبضغط مستوى المعيشة من أسفل بالارتفاع بمستوى الأفراد، على أن مفهوم الإسلام للغنى ليس تلبية للحاجات الضرورية فقط بل أن يملك الإنسان ما يأكل ويلبس ويسكن ويتزوج ويحج ويتصدق أيضًا. فالفقير في نظر الإسلام هو من لم يظفر بمستوى من المعيشة يمكنه من إشباع حاجاته الضرورية والكمالية بالقدر الذي تسمح به حدود الثروة في البلاد، وبقدر ما يتسع مستوى المعيشة يتسع المدلول الواقعي للفقر فإذا اعتاد الناس مثلاً استقلال كل عائلة بدار أصبح حرمان عائلة من دار مستقلة مملوكة لهم لونًا من الفقر (أي إن الإسلام لم يعط مفهومًا ثابتًا للفقر) وعلى هذا فالتوازن يعني إغناء كل فرد (مسلمًا كان أم ذميًا) بالقدر الذي يتناسب وإمكانات المجتمع في ذلك الوقت.

الضمان الاجتماعي:

هو ضمان الأمة لتلبية حاجات جميع أفرادها حتى تشيع بينهم الطمأنينة فيندفعوا إلى الإنتاج غير عابئين بالنتائج ما دامت حاجاتهم مكفولة أصلاً من قبل المجتمع، ويعتمد ذلك الضمان على:

أ- التكافل العام - فالمسلم أخو المسلم وكفالاته واجبة عليه وعلى الإمام إجبار المسلمين على ذلك إذا لم يحققوها بأنفسهم؛ ومن هنا فإن على المسلمين ألا يظهر بينهم محتاج ولا أئتموا جميعًا وأصبح على الإمام إرغامهم على دفع غائلة الحاجة عن ذلك المحتاج.

ب- حق الجماعة في موارد الثروة وحيث إن الثروة أصلاً استخلاف من الله للجماعة فإن حق كل فرد في الجماعة في كفالة حاجته مصونة إسلاميًا وعلى الإمام:

١ - أن يوفر العمل لكل قادر.

٢- أن يكفل المحتاج بالشكل الذي يغنيه وطبقاً لمفهوم الإسلام عن الغنى.
والسؤال الآن - فرضاً - إذا لم تكف تلك النظم لدفع الحاجة بسبب القحط أو
المجاعة أو غيرها من الأسباب؟؟؟

الجواب يتمثل في دراسة نموذج عمر بن الخطاب في مواجهة عام الرمادة وهو ما
يلخصه القول: (إذا جاع المسلمون فلا مال لأحد).

المنظومة السياسية:

يقوم النظام السياسي الإسلامي على عدد من المحاور كالتالي:

(١)- المسؤولية الفردية:

﴿ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ أَمْرِي وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ
إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨]

وكل إنسان مسؤول في إطار معين «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام
راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في
بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته
والرجل راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»
«حديث صحيح - تحقيق الألباني تخريج السيوطي في الجامع الصغير»

(٢)- تساوي الناس في الحقوق وعموم تلك الحقوق:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُ شُعوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣] ، وفي الحديث الشريف : «لا فضل
لعربي على أعجمي ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى»، «يا معشر قريش اشتروا

أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني مناف اشترُوا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية بنت عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً يا فاطمة بنت محمد سأليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً» حديث صحيح - صحيح الجامع الصغير للسيوطي - تحقيق الألباني.

والدعوة الإسلامية ذاتها مقدمة لكل الناس القوي والضعيف، الغني والفقير السيد والعبد، العربي والعجمي والرومي والحبشي: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

(٣) - التضامن بين الرعية والتعاون على البر والتقوى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ النَّبِيِّ الْحَرَامَ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

(٤) - الشورى:

وإذا كان النظام الإسلامي في كل تفصيلاته يقود إلى حرية التعبير فإن الشورى تحديداً أكثر التصاقاً بتلك المهمة، ذلك أنها تجعل حرية التعبير فريضة على الإمام أن يطلبها من الرعية، وعلى الرعية أن تؤديها إلى الإمام، وإلى غير الإمام، فالنصيحة لله وللرسول وللإمام وللعمامة وللخاصة على حد سواء، والدين النصيحة كما هو معروف ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

مُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿آل عمران: ١٥٩﴾ .

وهذا يعني أن الشورى فريضة بنص القرآن الكريم، وكذلك في الآية إرشاد إلى النبي وإلى من بعده ألا يكونوا غليظي القلوب أو مخيفين مرعبين، وذلك حتى يستطيع الرعية أداء النصيحة إليهم بدون خوف، وفي القرطبي «الجامع لا حكام القرآن» «أن الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب وهذا لا خلاف فيه ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِيَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣] .

والله تعالى هنا يركي الشورى بين الأزواج حتى في أشد حالات الخلاف، ومن ثم فالشورى سياسة عامة بين الراعي والرعية، وسياسية خاصة بين الإنسان وزوجته، والفرد وأسرته والآخرين والأصدقاء على حد سواء، والأثر الإسلامي يقول : «ما خاب من استشار بل إذا استشارك أحد ولم تحسن له المشورة كنت خائناً للأمانة كما قرر الشرع في الإسلام وهناك سورة كاملة من القرآن الكريم تسمي الشورى وجاءت فيها الآية ﴿وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَعْضَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧-٣٩]، وهذه الآية تجعل الشورى من صفات المؤمنين وتقرنها بالصلاة وترك الآثام وغيرهما من صفات الإيمان.

وفي إطار المدح فإن الله تعالى ذكر في القرآن في إطار سرده لقصة بلقيس ملكة سبأ

أَنهَا قَالَتْ ﴿قَالَتَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾
[النمل: ٣٢]

وفي الحديث الشريف:

يقول الرسول لكل من أبي بكر وعمر: «لو اجتمعنا في شورة ما خالفكما» رواه ابن حنبل، وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما رأيت أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله». رواه الترمذي.

وقول الرسول ﷺ: «إذا استشار أحدكم المسلم فأشار عليه بغير رشد فقد خان». رواه البخاري وأبن حنبل.

وفي الأحداث التي حدثت في حياة الرسول الكثير الذي يؤكد على وجوب الشورى فقبل معركة بدر عند الرسول مجلسا استشاريا لتبادل الرأي مع المسلمين، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ثم قال عمر بن الخطاب فقال وأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال «يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوا الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال رسول الله خيرا ودعا له، ولم تقتصر استشارة الرسول في هذا الأمر على هؤلاء الصحابة الذين هم من المهاجرين، بل أحب أن يستشير الأنصار أيضا فقال: «أشيروا علي أيها الناس» وكان يقصد الأنصار وفطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سعد بن معاذ، فقال والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل». قال: «فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوا الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل

واحد، وما نكره أن تلقي بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك فسر بنا على بركة الله».

فسر رسول الله بقول سعد، ثم قال : «سيروا وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أري مصارع القوم»^(١).

وسار الجيش المسلم إلى بدر، وهناك نزل في مكان معين فاعترض على ذلك الصحابي الحباب بن المنذر، وسأل الرسول : هل هذا المنزل بأمر من الله أم أنه الرأي والمشورة، فأفهمه الرسول أنه الرأي والمشورة، فأشار الحباب بن المنذر أن ينزل الجيش المسلم على البئر فيمنع الكفار من الماء ويستفيد به وحده، فقبل الرسول تلك المشورة وأمر بتنفيذها^(٢).

وهكذا فإن الشورى كانت سلوكا نبويا منهجيا، في كل الحالات بل في حالات الحرب والطوارئ.

وفي غزوة أحد، تم عقد مجلس استشاري لتبادل الرأي بين المسلمين وكان من رأي الرسول ألا يخرج المسلمون من المدينة وأن يتحصنوا بها، وأشار آخرون بالخروج من المدينة ألحا في ذلك، وتنازل الرسول عن رأيه واستجاب لمشورة هؤلاء^(٣)، ورغم أن رأيه كان الصحيح .

ولم يكن أمر الشورى بالنسبة للرسول قاصرا على أمور السياسية والحرب فقط، بل كان يستشير في شئونه الأسرية أيضا، فقبل أن ينزل الوحي ببراءة السيدة عائشة من حديث الإفك دعا الرسول كل من علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد

(١) صفى الرحمن المباركفوري - الرحيق المختوم - دار النشر والتوزيع الإسلامية القاهرة - ط ٢٠٠٥.

(٢) ابن عبد البر - الدرر في اختصار المغازي والسير - طبعة القاهرة ١٩٦٦ .

(٣) صفى الرحمن المباركفوري - مرجع سبق ذكره .

يستشيرهما في فراق أهله.

وفي طريقة التنبيه إلى وقت الصلاة، استشار الرسول المسلمين في ذلك فأشار البعض إلى استخدام البوق وآخرون باستخدام الناقوس، فأشار عليه عبد الله بن زيد «من الأنصار»، وعمر بن الخطاب «من المهاجرين» بالأذان المعروف الآن فأمر رسول الله بلالا به فأذن . رواه ابن ماجة.

وفي دولة الخلفاء الراشدين كان الأمر على نفس الطريقة، فكل خليفة من الخلفاء الراشدين كانت له مجموعة من كبار الصحابة يستشرهم ولا يقطع أمرا دونهم، سواء في أمور الحرب والسياسية، أو أمور الاجتهاد في الفقه أو القضايا والمنازعات أو حتى في شئون الصحة والمرض، فالخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه استشار في أمور كثيرة منها المواريث، والقضاء، وكان دائم السؤال عن الأمور التي تواجهه، فإذا وجد إجابة في كتاب الله أو سنة النبي أخذ بها، وإن لم يجد خرج فسأل المسلمين، أما عمر بن الخطاب فقد استشار في أمور منها تعزيز شارب الخمر، والأخذ بنظام الدواوين. وتطوير جهاز الدولة وإنشاء جيش نظامي، وكذلك في الموقف من الوباء الذي وقع في الشام.

ومن مآثرات عمر بن الخطاب في هذا الصدد «من بايع أميرا عن غير مشورة المسلمين فلا بيعه له، ولا بيعه للذي بايعه» رواه البخاري وابن حنبل. وكان الصحابة أيضا يفعلون ذلك يروي عياض الأشعري فيقول : «شهدت اليرموك، وعلينا خمسة أمراء، فأصبنا أموالا فتشاوروا» رواه ابن حنبل.



في نقد الديمقراطية

الحضارة الغربية حضارة إغريقية وثنية ذات مسحة أو قشرة مسيحية مزيفة، وهي حضارة تقوم على القهر والعنف والنهب والعنصرية وبديهي أنها تختلف عن الحضارة الإسلامية التي تقوم على التوحيد والعدالة والحرية وعدم العنصرية^(١)..... ومن ثم فإن كل ما تفرزه الحضارة الغربية من إفرازات أو نظم سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية سوف يحمل بالضرورة السمات الثابتة لتلك الحضارة وإذا نظرنا إلى إفرازات الحضارة الغربية نجد أنها كلها عنصرية بلا استثناء مثل الفاشية والنازية والشيوعية والاشتراكية والصهيونية والرأسمالية والديمقراطية والبرالية... الخ^(٢) وكذا فإن كل تلك المنظومات أو الحكومات والدول التي قامت على أساسها سواء كانت ملكية أو جمهورية، يسارية أو يمينية كلها مارست الاستعمار والنهب والمذابح..... بل إن ما كان منها يساريا كان أشد قسوة، فأكبر المذابح التي مارستها فرنسا في الجزائر تمت على يد حكومات الاشتراكية.

ومن المفيد هنا أن نقرر حقيقة أخرى، أنه ربما تكون هناك مناطق تتشابه فيها بعض المنظومات الغربية مع المنظومات الإسلامية ولكن هذا لا يعني أن هناك تطابقا أو هناك صلة عضوية بين الطرفين^(٣) فهي على غرار تقاطع دائرتين في قوس

(١) المواجهة بين الإسلام والغرب. د/ محمد مورو - الدار المصرية للنشر والتوزيع - القاهرة - ١٩٩٣ م.

(٢) نيس هنا محل تقصي مظاهر العنصرية في تلك الإفرازات في هذا البحث، وذلك موضوع طويل يمكن تتبعه في مصادر أخرى للمؤلف نفسه أو لغيره.

(٣) الإسلام بين الشرق والغرب - علي عزت بيجوفيتش - ترجمة محمد يوسف عدس - مؤسسة بافاري - ١٩٩٧ م.

ولكن لكل دائرة مركز مختلف وقطر مختلف ومن ثم محيط ومساحة مختلفين ، وهكذا فإن هؤلاء الذين يتحدثون عما يسمى باشتراكية الإسلام أو ديمقراطية الإسلام^(١) أو غيرهما يقعون في خطأ منهجي كبير، ونحن نرفض هذا بالطبع، من باب أنه خطأ علمي، ومن باب ضرورة تحرير المصطلح وعدم الوقوع في إرهاب هذا المصطلح، ولأننا ندرك أن هناك خلافاً جوهرياً في المناهج والغايات، وفي الوسائل والأهداف بين المنظومة الإسلامية السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها من المنظومات.

من البديهي الآن. وبعد خبرات طويلة تراكمت سياسياً وثقافياً أن أحداً في الشرق أو الغرب لم يعد يتحدث عن إمكانية وجود حرية في المنظومة الفاشية أو النازية، أو الشيوعية، رغم وجود تنظير فلسفي حول مزاعم وجود تلك الحرية في تلك المشروعات، ولكن النقد النظري والتجربة الحية أطاحت بذلك الآن... لم يعد هناك إذن إدعاء وجود حرية من أي نوع كان إلا في الديمقراطية والليبرالية، ومن ناحيتنا وناحية كل مفكر منصف فهي موجودة في النظام الإسلامي أيضاً، على أننا أمام محاولة لحسم المعركة قبل أن تبدأ بنوع من المغالطة، فالبعض يحاول أن يتحدث عن الحضارة الغربية وكأنها هي وحدها الحضارة، ومن ثم فأما أن تقبل قيم الحضارة الغربية وإما فأنت معادي للحضارة والتقدم وبربري وأحياناً إرهابي، وكذا فإن الحديث نفسه يدور حول أن الديمقراطية تعني الحرية، وهذا غير صحيح بالمرّة، نحن نؤمن أن الحضارة الغربية حضارة فاسدة وقيمها فاسدة ولا يمنع هذا أن يكون فيها بعض الإيجابيات ولا يمنع أن تتشابه في بعض دعواتها مع النظام

(١) الأستاذ/ محمود عباس العقاد - وهو مفكر كبير جداً ومدافع عن الإسلام دفاعاً مجيداً، وقع في هذا الخطأ واستخدم مصطلح ديمقراطية الإسلام في أكثر من كتاب، بل إن له كتاباً بعنوان «الديمقراطية في الإسلام» صدر في طبعات كثيرة آخرها عن دار نهضة مصر - القاهرة ٢٠٠٥م.

الإسلامي ولكن هذا على طريقة اتفاق شجرتين في لون الورق ولكن البذور مختلفة والشمار مختلفة وأشياء أخرى كثيرة مختلفة، ربما كالاختلاف بين شجرتي الزقوم والزيتون. وكذلك لا يمنع وجود أفراد وجماعات داخل المجتمع الغربي ربما تكون أكثرية أو أقلية تتصف بالانصاف والعدل. ولكن هذا شذوذا يؤكد القاعدة، وهم أنفسهم يرفضون بشكل ما المنظومة الغربية والمهم أنهم ليسوا أصحاب القرار، الغربي، أو ما يسمى الظاهرة في مجراها الرئيسي كلها تقود إلى العنصرية القهر والعنف، فدعم الصهيونية مثلاً مستمر منذ قرن على الأقل بعد وقبل إنشاء إسرائيل برغم ممارسات علنية يومية فيها قمع هائل للإنسان الفلسطيني والعربي، وكذا العدوان على العراق وأفغانستان... الخ.

استخدام مصطلح الديمقراطية الإسلامية خطأ علمي وسياسي أيضاً وهو نوع من الاستلاب الحضاري، ونحن نري أنه لا حرية إلا في الإسلام لأنه فطرة الله الناس عليها وبديهي أن الله يصنع للإنسان ما يصلحه لأنه الذي خلقه ويعلمه حقيقته وما يصلحه وما يفسده ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وأن الديمقراطية لم ولن تحقق الحرية، ربما تكون أفضل أو أسوأ من الشيوعية أو الفاشية أو النازية ولكنها في النهاية تظل إفرازاً غريباً يحمل نفس مساوئ الأرضية الحضارية التي أفرزتها، الحضارة الغربية في صورتها الديمقراطية أو تحت حكومات ديمقراطية مارست الاستعمار، وهو نوع من قهر حرية الآخرين، ومن ثم فهي ديمقراطية مزيفة، وهي نفسها التي مارست نهب المستعمرات ومن ثم فهي ديمقراطية ناهبة، وهي نفسها التي أنشأت إسرائيل وسلحتها ومولتها وإسرائيل تمارس الديكتاتورية والقهر على مدار اليوم والساعة منذ أكثر من ستين عاماً ومن ثم فهي ديمقراطية عنصرية وأصولية، لأنها تدعم دولة يقوم قانون الجنسية فيها على

أساس الدين اليهودي، فكل يهودي متي وطأت قدمه أرض إسرائيل فهو يحصل على الجنسية فوراً، وهي ديمقراطية مارست إبادة الهنود الحمر في الأمريكتين، والأبورجيين في أستراليا «بعشرات الملايين» فهي ديمقراطية عنصرية بامتياز وهي فوق هذا وذاك مستمرة في تلك الأمور منذ أكثر من قرنين على الأقل ولم ولن تكف عن ذلك لأنها سمة أصلية في تلك الحضارة، آخرها «العدوان على العراق وأفغانستان».

الديمقراطية مشتقة من كلمة يونانية^(١)، ومن ثم فإن تعريبها صعب شديد الصعوبة، لأنها تعبر عن سياق اجتماعي وحضارة معينة مختلفة عن السياق الحضاري العربي، وفي الحقيقة فإن تلك الصعوبة تظهر في شيوع مجموعة من الأخطاء العلمية، فالذي يقومون بتطبيق قواعد علم الاجتماع الغربي الذي ظهر في سياق حضاري وثقافي واجتماعي معين على ظواهر عربية وإسلامية نشأت في سياق اجتماعي آخر يقعون في أخطار فادحة، فالأصولية مثلاً، والدين والدولة وغيرها من المصطلحات تعني هناك غير ما تعني في المشروع الإسلامي تماماً، ويجب التعامل مع أي ظاهرة بقواعد علم الاجتماع الذي ينبع من نفس الأرضية الحضارية، ولا يعني هذا أن علم الاجتماع العربي أو الإسلامي أفضل من علم الاجتماع الغربي، ولكن من العلمية والموضوعية استخدام كل علم فيما يصلح له من ظواهر ليقوم بتفسيرها وهذا معروف في العلوم الطبيعية ذاتها، فقانون نيوتن مثلاً يصلح لتفسير الحركة في السرعات العادية، أما السرعات التي تصل إلى سرعة الضوء مثلاً فلا يصلح معها قوانين نيوتن، بل قانون النسبية لأينشتين مثلاً المهم أن الديمقراطية نظام يوناني أخذته أوروبا في إطار بعث الثقافة الإغريقية والرومانية في بداية عصر

(١) هي كلمة ديموس.

النهضة، نظام الديمقراطية اليوناني نشأ في القرن الثامن قبل الميلاد على يد ليكرغ، وكان يقوم على انتخاب عدد من الزعماء عن طريق وضع الناس في مكان معين، ويوضع عدد من المراقبين في مكان قريب بحيث يسمعون الصوت ولا يرون المنظر، ثم يتقدم المرشحون واحداً واحداً، فكلما تقدم واحد منهم سجل المراقبون نصيبه من جلبة الأصوات الخارجية، ولعل هذا نفسه ما تطور في نظام التصويت فيما بعد ... ونلاحظ هنا أن الذين كان يسمح لهم بالتصويت هم الناس الذين يملكون سلاحاً، ثم بعد ذلك من كان له نصاب مالي معين، مع حرمان الآخرين من التصويت، وفي روما القديمة كان يتم التصويت بواسطة الوجهاء فقط مالا أو سلاحاً أما السكان غير الرومان عموماً فلا حقوق سياسية لهم، أي أنها ديمقراطية عنصرية في أصلها، وحتى بعد أن أخذت أوروبا هذا النظام فإن الجوهر لم يتغير كثيراً، فالعمال في إنجلترا لم يأخذوا حق الانتخاب إلا في سنة ١٨٦٧، وذلك لأنهم أصبحوا قوة لازمة للدولة في المصانع، ولم يحصل عمال الريف على هذا الحق إلا بعد ١٨ سنة من هذا التاريخ، والمرأة الإنجليزية لم تحصل على حق التصويت إلا بعد الحرب العالمية الأولى لأنها اشتغلت بأعمال المصانع أثناء غياب الجند في ميادين القتال.

ويلاحظ الأستاذ العقاد أن الحكومة الديمقراطية نشأت بين الاسبرطيين أصحاب النظم والإجراءات الإدارية ولم تنشأ بين الأثينيين أصحاب الفلسفات والبحوث النظرية، ويعلق الأستاذ عباس محمود العقاد على ذلك بقوله: «فمن الواضح أن الديمقراطية قديمها وحديثها لم تقم على الحق الإنساني المعترف به لكل إنسان وأنها كانت إلى الضرورة العملية أقرب منها إلى المبادئ الفكرية والأصول الخلقية.

وهكذا فإن هناك فرقاً جوهرياً بين الحرية في المنظومة الإسلامية، القائمة على الحق الذي أعطاه الله للإنسان، وعلى وجوب ذلك في كل الظروف وليس استجابة

لظروف وتوازنات.

الحرية في الإسلام غير الحرية في الديمقراطية، فالحرية بغير إيمان هي حركة آلية حيوانية أقرب إلى الفوضى والهيّاج فيها إلى الجهد الصالح ولأن الحرية في الديمقراطية لا تستند إلى قواعد أخلاقية إنسانية أو ذات طابع إيماني ديني، فإنها لا تحرم مثلاً لعب القمار أو شرب الخمر أو الزنا أو الشذوذ، بل تعتبر هذه حريات شخصية وبديهي أن فيها من الفساد والإفساد وضياح الوقت والجهد، وغيبوبة العقل ماله أثر سلبي على المجتمع واستقراره ورخائه، ربما تؤدي إلى انهياره في النهاية.

يقوم النظام الديمقراطي، كما يقدم له فلاسفته على الإيمان بالفرد إيماناً لا حد له، وأنه إذا تركت له الحرية الكاملة، فإنه ينحو بصورة طبيعية إلى مصلحة المجتمع وبديهي أن هذا كلام نظري غير صحيح وهو أقرب إلى الميئاذيقا الذي يدعي فلاسفة النظام ذاته أنهم يرفضونها، أنه ينطلق من فكرة مسبقه هي فكرة أن الإنسان سيتصرف بصورة صحيحة دائماً، وأنه مجبول على ذلك، وبديهي أن التجارب البشرية لا تقول بهذا، فالإنسان فيه خير وشر، وهو يختار الخير والشر، وبديهي أن البعض يختار الخير والآخر يختار الشر، والفرد نفسه لا يكون خيراً بالكامل أو شراً بالكامل :

﴿ وَفَسَّسَ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۚ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۙ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۙ ﴾ [الشمس: ٧-١٠] .

وبديهي أيضاً أن وضع عقوبات على السلوك ليس وحدة كافياً لمنع تجاوز الإنسان، والذي يحدث عادة أن الأفراد لا يتصرفون بطريقة صحيحة، ومن ثم فإن المحصلة حدوث تفاوت طبقي رهيب، بل واستغلال الأغنياء أموالهم للاستبداد

بالفقراء، والأقوياء بالضعفاء، ويصبح المجتمع جحيمًا كما حدث في التجربة الليبرالية الغربية، بل هذه المجتمعات ذاتها تذهب لتنهب الآخرين «الاستعمار» والمحصلة ضياع الحرية الحقيقية على مستوى الأفراد وعلى مستوى الدول بعضها ببعض بل القارات بعضها ببعض، وقد لجأت الكثير من تلك الدول إلى وضع ضوابط كثيرة ألغت بها مفهوم الحرية المطلقة للفرد، وأعطت للحكومات الكثير من السلطات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومن ثم نسفت الأساس النظري للديمقراطية والليبرالية وبديهي أن نظام الحرية في الإسلام ينطلق من أنها حق أعطاه الله للإنسان، وأن هذه الحرية لا تتحقق بإطلاق حرية الفرد وفق ضوابط سياسية وأخلاقية معينة ومن ثم فإن التجربة الإنسانية أثبتت حتى الآن أن المفهوم النظري والتطبيقي للحرية في الإسلام هي الوحيدة الصالحة حتى الآن.

النظام الليبرالي إذن يقوم على الحريات الأربع، وهي الحرية السياسية، والحرية الاقتصادية، والحرية الفكرية، والحرية الشخصية، وهذه الحريات ثبت في الواقع التطبيقي الأوروبي ذاته أنها مجرد أوهام، فالحرية السياسية يتم مصادرتها على طريق الأعلام والتوجيه والضغط على الناخبين، وشراء الأصوات والخداع، وفي المحصلة فإن المجمع الصناعي العسكري في الدول الديمقراطية هو الذي يوجه السياسة ويحقق ما يريد في النهاية من فوز هذا أو ذاك من الأفراد أو الأحزاب في الانتخابات، ويعترف كبار منظري العلمانية والليبرالية والمؤمنين بالحضارة الغربية بذلك، فالدكتور فواد زكريا يقول في كتابه الصحوة الإسلامية في ميزان العقل «إن النظام الديمقراطي مبني أساساً على قيم فردية على الرغم من المظهر البراق الذي يتخذه هذا النظام حين يؤكد أنه المدافع عن الحرية الفردية، وحقوق التعبير والكلام إلى آخر هذه الحريات الليبرالية المعروفة التي يتخذها الموافقون على هذا النظام محورا

لدعايتهم، وعلى الرغم من هذا كله فإن الحرية التي يدافع عنها هذا النظام هي في واقع الأمر حرية استغلال للضعيف، وكل ما عدا ذلك من حريات تظل ذات طابع شكلي»^(١).

والحرية الاقتصادية تؤدي في النهاية إلى وجود تفاوت طبقي رهيب وتؤدي إلى شقاء الفقراء وزيادة اكتناز الثروة، وأن ذلك يستمر بمتواليه هندسية، والمحصلة النهائية : هو أن يصبح نسبة قليلة من سكان العالم في رخاء ٢٠٪ يحتكرون ٨٠٪ من الثروة في حين أن هناك آلاف الملايين من البشر تحت خط الفقر، وهذه النسبة مرشحة للتوسع طبعاً، بل وحتى داخل مجتمعات الـ ٢٠٪ تلك هناك نسبة ١٠٪ تسيطر على ٩٠٪ من الثروة، وباستمرار المتواليه ستصبح الثروة في الدنيا عموماً، وفي كل بلد خصوصاً مملوكة لـ ١٪ والباقي فقراء، وبديهي أن ذلك أدى إلى الاستعمار أولاً، ثم أدى إلى الشقاء الاجتماعي ثانياً، ويمكن أن يؤدي إلى انفجارات هائلة اجتماعية، بل وبيئية لأن الحرية الاقتصادية والتنافس تؤدي إلى استنزاف البيئة، والإنتاج على حساب التوازن البيولوجي والمناخي ومن ثم حدوث كوارث من التلوث وغيرها والحرية الشخصية تؤدي إلى انتشار الدعارة والشذوذ والخمر والميسر، وكلها أمور تقود إلى تفكك المجتمعات وهكذا فإن الديمقراطية فاسدة في أصلها النظري، وفاسدة في تطبيقاتها الواقعية على حد سواء.



(١) الصحوة الإسلامية في ميزان العقل - د/ فؤاد زكريا - دار الثقافة الجديدة - القاهرة ١٩٩٠ م.

العولمة – الليبرالية الجديدة

بعد سقوط الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية، ظهرت أفكار من أمثال نهاية التاريخ، والانتصار النهائي للديمقراطية والرأسمالية، وبدأ نشر فكرة تقول : إن النظام الصحيح، وإن الحضارة هي الديمقراطية والرأسمالية، وأنه يجب عدم الاعتراف بالحدود القومية والوطنية وإلغاء كل القيود الجمركية، واعتبار العالم قرية صغيرة وأن يصبح الإنتاج ذا طابع عالمي، وبعيدا عن الشعارات فإن المطلوب هو تحويل العالم إلى حلبة مصارعة بين قزم اقتصادي وعسكري وعملاق اقتصادي وعسكري وأن النتيجة معروفة سلفاً وهي جعل النهب والظلم والاستعمار أمراً مشروعاً ومعترفاً به عالمياً.

والغريب هنا أن الدعوة إلى حرية المرور والتجارة وإلغاء الحواجز الجمركية واعتبار العالم قرية صغيرة اقتصر على حرية رأس المال والبضائع فقط، في حين أن المفروض طالما أن العالم أصبح واحداً ولا داعي للحديث عن السيادة الوطنية أن يفتح الباب أمام مرور الإنسان من هذا البلد إلى ذاك، ولكن الذي حدث مزيد من القيود على هجرة الإنسان وتنقله، بل ورصد ميزانيات وعمل شرطة وجيوش لمنع ما يسمى بالهجرة غير الشرعية، وكأن الإنسان في هذا النظام العالمي الجديد أقل قيمة من السلع المسموح بمرورها دون قيد أو شرط.

تزامن مع ذلك ظهور ما يسمى في بلادنا بالليبراليين الجدد^(١) وهم من بقايا الماركسيين السابقين، أو المطبوعين مع الكيان الصهيوني، وهم لا علاقة موضوعية

(١) مجلة البيان - العدد ٢١٩ - ذو القعدة ١٤٢٦ هـ - ديسمبر ٢٠٠٥ م.

بينهم وبين الليبرالية، فهم يفتقدون لأبسط قواعد الليبرالية وهي الاعتراف بالآخر فهم يرون حرمان الاتجاه الإسلامي من حق العمل العلني والقانوني، ويدعون إلى إلغاء فكرة السيادة الوطنية - مع أن الليبرالية ارتبطت في أوروبا بفكرة السيادة الوطنية وظهور الدول القومية - ويدعون إلى نبذ فكرة الانتماء الديني والقومي والوطني ومن ثم التعايش مع الإسرائيليين والتعامل معهم، وهؤلاء مجرد طابور خامس تستخدمه الولايات المتحدة للضغط على الحكومات وعلى كل حال فإن التبشير بالديمقراطية المزعومة الذي قامت به الولايات المتحدة - رغم إدراكنا منذ البداية أنه نوع من الكذب لا أكثر ولا أقل - إلا أن الولايات المتحدة ذاتها اتجهت في النهاية إلى تسوية الأمور مع أنظمة الحكم التي كانت تطالبها بالديمقراطية، وباعت من ثم ما يسمى بالليبراليين الجدد في سوق السياسة بثمن بخس.

